الفصل الثاني

عهد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية

المبحث الأول
اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد ـ عماد الدين ـ زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي السلطاني الملكشاهي، مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة[1]، وهم ينتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة[2]، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله سنة (541هـ/ 1047م)[3]. وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصل من 521هـ ـ 541هـ مدرسة عُليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية، وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري والتطبيقي[4].

وقد تزوج نور الدين عام 541هـ الزواج الذي لم تكن من ورائه جارية ولا سريّة من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وما إن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبة ابنة معين الدين[5]، وخلّف نور الدين

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 531).

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 73.

(3) المصدر نفسه، ص: 73.

(4) المصدر نفسه، ص: 88 ، 89.

(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 288، 289، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 48.

من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما: الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألم به عام (577هـ)، وأحمد الذي ولد بحمص عام (547هـ) ثم توفي في دمشق طفلاً[1]، وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنئة لنور الدين بمولوده الجديد فقال:

وجئت بأحمد فملأت حمداً ... موارد كان معدنها عذابا

تهلل وجه مُلك يوم أهدت ... قوابله لك المَلِك اللبابا

شبيهك لا يغادر منك شيئاً ... سناً وحيياً وبذلاً واستلابا

قسيم الحمدِ إلا أنّ حرفاً ... من اسمك زاد للمعنى منابا

ألا لله يوم فُرّ عنه ... وركب نصّ بالبشرى الركابا[2]

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك للقيام، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً[3]، وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم[4]، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام 563هـ: وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد تريد أن تحجَّ من هناك، وهي السّتُّ عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنُر، فتلقاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأُكرمت غاية الإكرام[5]، وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقة والتزامه الأخلاقي المسؤول حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحّت عليه علة القولنج التي أودت بحياته. وقال: لا، حتى أسأل الفقهاء، فلما أفتوه بالجواز لم يقبل وسأل كبيرهم: إن الله تعالى قرّب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا، فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم عليّ[6].

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 418.
(2) كتاب الروضتين (1/ 221).
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 49.
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 49.
(5) البداية والنهاية (16/ 425).
(6) الباهر، ص: 182، نور الدين محمود، ص: 49.

بشهرزور وهي إقطاعه من قبيل أبيه بينما كان نور الدين محمود، وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر، وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى حلب، فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة (541هـ 1146م)[1]، وكان عمره ثلاثون سنة كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه مُنذ سنة (521هـ/ 1127م) حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود[2]، وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعدّ العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني[3] قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسياني، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي[4] عنها، حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياغسياني يقول له: إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا ونهر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه[5]، وكان أول عمل قام به جمال الدين وصلاح الدين أن أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك نائب زنكي في الموصل يخبراه بما حصل لزنكي، فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها وتسلمها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها[6]، أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتنقل من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقُبض عليه وأودع السجن، ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ[7].

---

(1) زبدة الحلب (2/ 285)، الحياة في العهد الزنكي، ص: 42.

(2) الباهر، ص: 71 ، 72، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 42.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 42.

(4) نهاية الأرب، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 43.

(5) الباهر، ص: 84 ، 85.

(6) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 191، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 44.

(7) مفرج الكروب (1/ 109).

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها من مدن الشام، أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران[1]، فقد حكم حرّان تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين وأدّى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن: ـ يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.

أ ـ يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

ب ـ يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والداشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصمّام الأمان ضد أي خطر تتعرض له، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود المحبة والألفة[2]، فبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرحبة والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن يُنسِّق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مُدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها، بالإضافة إلى الظهور بمظهر القوة أمامهم، لذلك رأى ضرورة الاجتماع

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 44. (2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 168 ، 169.

بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي، ويبدو أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه، إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلّلاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين[1]، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين وهي:

أ ـ رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لخضة سياسية أثارها الملك ألب أرسلان السلجوقي بهدف الاستبلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

ب ـ عدّ سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر[2].

ج ـ رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل[3].

دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نور الدين محمود للاجتماع به وتسوية الأمور بينهما، وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها التي كانت تدخل في منطقة نفوذه بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام 541هـ/ ربيع الثاني 1147م، والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهدّدة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها[4]، وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته[5]، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كل منهما خمسمائة فارس فقبل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 170.
(2) المصدر نفسه، ص: 170.
(3) المصدر نفسه.
(4) الباهر، ص: 87 ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 170.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 170.

إلا خمس فوارس فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا وقال له سيف الدين: من لي غيرك يا نور الدين، ولمن أدخر الخير إن أسأت إلى أخي، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت الأمور بينه وبين أخيه[1]، وسكن روعه وعاد إلى حلب[2]، حيث جمع عساكره وتجهَّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[3].

1 ـ وفاة سيف الدين غازي الأول:

استطاع سيف الدين ونور الدين أن يحلاّ المشاكل التي بينهما وتعاونا على البر والتقوى، وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنباً إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام (543هـ/ 1148م)، ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق، ومن مظاهر التعاون أيضاً اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنّب، وفي فتح أفاميه سنة (544هـ/ 1149م)[4]، إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادى الآخرة من سنة (544هـ / 1149م) بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً، ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل[5].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ جميل الصورة، وكان عمره نحواً من أربع وأربعين سنة وخلّف ذكراً رباه عمه نور الدين محمود وزوَّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي، فتوفي ولد سيف الدين شاباً، وانقرض عقبه[6]، وكان سيف الدين غازي جواداً كريماً شجاعاً وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل وقفها على الفريقين الحنفية والشافعية، وبنى رباطاً للصوفية، وكان مقصداً للشعراء، فقصده شهاب الدين الحيص وامتدحه بقصيدة قال فيها:

أتـابـكُ إن سـمـيـت فـي الـمـهـد غـازيـا فـسـابـقـة مـعـدودة فـي الـبـشـائـر

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 172). الزنكي، ص: 47.
(2) الباهر، ص: 87، 88، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 171.
(3) الباهر، ص: 92 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 47.
(4) مفرج الكروب (1/ 116).
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.

وَفَيتَ بها والدِّين قد مال رونقه وصدّقتها والكفر بادي الشعائر

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه، وسوى الخلع والثياب[1].

وعزّى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة منها:

وكان نظيرك غارَ الزمان من أن يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوسٌ بك استوطنت من الأمن نوراً وقد كُنَّ بورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين تُوفَّى الرَّدَى وتوفَّى الأجورا
وما نقص الدّهرُ أعدادكم إذا شفَّ قطراً وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم لَخَطَّ لهم في السَّماء القبورا
حياتك أحييت رميم الحياة وأنطَقْتَ من الجود ظهراً ظهيرا[2]

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

ما أطرق الجوُّ حتى أشرق الأُفُق إن أُغمد السيف فالضَّمصام يأتلقُ
دون الأسى منك نور الدين في حلب مُملَّكٌ ينجلي عن وجهه الغَسَقُ
كنت الشقيق الشفيق الغيث حين نوى أراق ماء الكَرَى من جفنك الأرَقُ
تلقى الأسى في لباس الصبر في جُنَنٍ[3] حصينةً تحتها الأحشاء تحترق
ومدة الأجل المحتوم إن خفيت فإن أيامنا من دونها طُرُقُ
وإنما نحن في مضمار حليتها خيل إلى غاية الأعمال تستبق

إلى أن قال:

ما دام شمسُكَ فينا غير آفلةٍ فالدِّين منتظم والملك متسقٌ[4]

2 ـ تولي قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل:

اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن

(1) كتاب الروضتين (1/ 228 ، 229).
(2) المصدر نفسه (1/ 230).
(3) مفردها جُنّة : وهي الدرع.
(4) كتاب الروضتين (1/ 230).

يخلف قطب الدين أخاه على الموصل، فأحضراه، وخلّفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل[1]، وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخوين لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حدّاً لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى: أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار، راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين[2]، ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين علي كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل[3].

وقد لقيت هذه البادرة قبولاً طيباً عند نور الدين، وطمع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين فجدّ نور الدين في السير، وقطع الفرات متجهاً إلى سنجار فاستولى عليها[4]، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدّوا ذلك اعتداء مباشراً عليهم على اعتبار أن سنجار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنجار، فنزل بتل يعفُر[5] وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار واعتدائه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدداه بقصده إن هو لم يرحل عن البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما ورد عليهما بقوله: إنني أنا الأكبر وإني أحق أن أدبر أمر أخي له منكم وما جئت إلا لمّا تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر من أيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم[6]، أدرك الوزير جمال الدين محمد، وزين الدين على ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه، والتنازل عن بعض المواقع في الشام والتي كانت تتبع الموصل مثل حمص، والرحبة والرّقة[7]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين،

---

(1) الباهر، ص: 94، زبدة الحلب (2/ 296).

(2) الباهر، ص: 95، زبدة الحلب (2/ 296) الحياة العلمية، ص: 48.

(3) الباهر، ص: 95، الحياة العلمية، ص: 48.

(4) المصدر نفسه، ص: 95 ، 96، المصدر نفسه، ص: 48.

(5) تل يعفر: ويقال: أعفر: وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل.

(6) الباهر، ص: 96 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 49.

(7) الرّقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان مسيرة ثلاثة أيام.

وتمّ الاتفاق بين الأخوين وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه[1]، وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسن جعلت نور الدين يقدم في عام (554هـ/ 1159م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحسّ بضعفه ومرضه، وقد أنفذ نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفداً يخبره بالموقف وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (554هـ/ 1159م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته فشكره نور الدين على ذلك، وعبّر له عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود[2].

وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة يقول ابن الأثير في حقهم: إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال، ومحاسنها، وحسن السيرة وعمارة البلاد، والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، يقول: أظن أنَّ القائل أرادهم بقوله:

هَـيْـنـون لَـيّـنـون أيـسـار بـنـو يـسـرٍ ... سُـوّاسُ مـكـرمـةٍ أبـنـاءُ أيـسـار

لا يـنـطـقـون عـلـى الـعـوراء إن نـطـقـوا ... ولا يـمـارون إن مـاروا بـإكـبـار[3]

المبحث الثاني
أهم صفات نور الدين زنكي

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله وباليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلّاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها:

---

(1) الباهر، ص: 96، 97، كتاب الروضتين نقلاً عن الزنكي، ص: 50.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الحياة العلمية، ص: 49.

(3) الباهر، ص: 15، نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 51.

أولاً: الجدية والذكاء المتوقّد:

مُنذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسّد أي فتق أو اعتداء من قِبل الأعداء: فلما قتل زنكي سنة (541هـ) يقول ابن الأثير: كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات: تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجدّ في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجداً إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها، فلم يبق منهم إلاّ القليل وأجلى من كان بها من الفرنج[1]. وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام (539هـ) وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية. أما وقد تآمروا ـ ثانية ـ في أخريات عهد زنكي، وثالثة: بعد مقتله لإعادة الرها إلى السيطرة الصليبية منها يجي الرد بمستوى الجدّ الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة[2].

وفي عام (567هـ) هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوأين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته كما يقول ابن الأثير، إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة شمالي اللاذقية، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة ـ كما يبدو ـ إلى هدنة كهذه[3].

ويوماً بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح ـ الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين ـ إلى حمية السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم، فقام نور الدين

---

(1) الباهر، ص: 86، 87، نور الدين محمود زنكي، (3) الباهر، ص: 154، 155، نور الدين محمود، ص: 12. ص: 13.

(2) نور الدين محمود، ص: 12.

وقعد، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسراً، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأخلد إلى إعمال الحيلة[1]. وكان نور الدين، كما يقول ابن الأثير: إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء[2].

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان كما يقول ابن الأثير: يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد لأناضول: فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها ـ إذا أراد ـ فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجر فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[3]، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيفتزُّ حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله، ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه، وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه، وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها، انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء[4]، فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون ـ كما سيأتي بيانه بإذن الله ـ يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لإشغالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه

---

(1) زبدة الحلب (2/ 301، 302)، نور الدين محمود، ص: 13.

(2) الباهر، ص: 103 نور الدين محمود، ص: 13.

(3) الباهر، ص: 169، نور الدين محمود، ص: 13.

(4) الباهر، ص: 107، 108، زبدة الحلب (2/ 303، 305).

المهمة: إن أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما[1]، ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس فإن ذلك مما يفتّ في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور ـ الوزير المصيري ـ الإذن بالانفصال[2]، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصني المنيطرة بالشام 561هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه في سريّة من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم، وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن، ولم يجتمع لدفعه إلّا وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه[3]، فهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

ثانياً: الشعور بالمسؤولية:

تولد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها، حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته، فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية[4] في رسالة نور الدين محمود إلى إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمذان والري، جواباً على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل، ويتهدده بأن لا سبيل له إليها، قال نور الدين للرسول: «قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي» ـ يعني سيف الدين

---

(1) الاعتبار، ص: 14، نور الدين محمود، ص: 14.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 15.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 15.

(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 132.

غازي ـ منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس: الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين[1]. كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع[2].

فحينما علم في عام (544هـ/ 1149م) بتحالف الصليبيين قال: لا أنحرف عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضّياع، ويحسن الرأي في الفلاحين، ويعمل على التخفيف عنهم، الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق: «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين... بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم، فلا يسعني مع ما أعطاني الله ـ وله الحمد ـ من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين»[3]، وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، والتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه[4].

وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين، وقال: «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[5]. فهو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدوّ.. معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء[6]... ومن ثم كانت عادة

---

(1) زبدة الحلب (2/ 332، 333)، نور الدين محمود، ص: 17.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 407.

(3) دمشق، ص: 308، 309 لابن القلانسي، نور الدين محمود، ص: 16.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 17.

(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 17.

(6) المصدر نفسه، ص: 17.

نور الدين كما يقول أبو شامة: إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها[1]. لقد كان الدم عنده عظيماً، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل[2].

ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث، واضعاً عينيه على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، ففي عام (552هـ) شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية، فخربت الكثير من القرى والمدن، وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر على ساعد الجدّ وبذل جهوداً عظيمة في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته، فعادت البلاد كأحسن مما كانت، ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار[3]، وفي عام (565هـ) ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً على سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى، ويعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله فقط أو أنه إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب، وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهليها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك، ومنها إلى حماه فبعرين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال ما لا يقدر قدره[4].

إن الكوارث ـ التي يبتلي الله بها عباده ـ تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 17.
(2) الباهر، ص: 107، نور الدين محمود، ص: 17.
(3) الباهر، ص: 110، 112، نور الدين محمود، ص: 18.
(4) الباهر، ص: 45.

الأمم والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق[1]. ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال: كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلّا من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرّس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة[2]. وعلق الدكتور عماد الدين صاحب «كتاب نور الدين محمود الرجل والتجربة» على هذه الحادثة فقال: لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافة. ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين[3].

رابعاً: نزعته للبناء والإعمار:

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن[4]، فقد بنى نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح، كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجّع أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقَّ الطرقات العامة، فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية[5]، ولم يغفل نور الدين ـ وهو بصدد البناء والإعمار ـ عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع.. ورجلٍ كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة[6]، فقد أوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدّد مصارف وقفه المذكور نصفه على تطبيق جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية

(1) الباهر، ص: 45.
(2) نور الدين محمود، ص: 19.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.
(5) نور الدين محمود، ص: 19.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 21.

والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها[1]. وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفاحية، مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام[2]، ولما دخل قلعة دمشق عام 549هـ أنشأ بها داراً عامة في غاية الحسن سماها: دار المسرّة[3]، وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميداناً «خضّره بالحشيش» وسمي الميدان: الميدان الأخضر[4]، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام (552هـ) حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق، والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام[5]. لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته - إذا صح التعبير - مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي.

وتبدو نزعة نور الدين للإعمار والتحضر، أكثر ما تبدو في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج[6]، ونقل أعرُب بني عبّاد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن عمل هذه الخطوة انصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم كما أشارت الرواية المذكورة[7]، إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً[8]، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير، الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين، ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه، لأن تغييرات جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق: «وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً، وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق ما يقرب من مائة حمّام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 21.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 21.
(3) المصدر نفسه، ص: 21.
(4) مرآة الزمان (8/ 306)، نور الدين محمود، ص: 22.
(5) المصدر نفسه.
(6) مرآة الزمان (8/ 306)، نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 22.
(7) البرق، ص: 125، 126، نور الدين محمود، ص: 22.
(8) المصدر نفسه.

للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة.. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً»[1]، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه - كما سنرى في الفصول التالية - فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية، وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك[2].

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة[3]، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف[4]، ويصف مجلسه فيقول: «وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدّى هذا..» وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا[5]، وقال ابن كثير: لم يُسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتاً وقوراً[6]. وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب... وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول: «هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[7].

---

(1) البرق، ص: 125، 126، نور الدين محمود، ص: 24.
(2) المصدر نفسه، ص: 24.
(3) المصدر نفسه، ص: 24.
(4) المصدر نفسه، ص: 24.
(5) الباهر، ص: 173، نور الدين محمود، ص: 24.
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 24.
(7) الباهر، ص: 172، 173، تاريخ الزنكيين، ص: 409.

سادساً: محبة المسلمين له:

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة 552هـ قال: وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه، ثم عوفي ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً[1]، وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وفيها: «كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشّبحة[2] في رجله، فنزل رجل كردي فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه»[3]، وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين، وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق، وما أبلغ تعبير ابن كثير: «مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه»، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن؟ ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر لينام ويتعب ليستريحوا، وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله ـ نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً ـ وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

فـإذا أحـب الله بـاطـن عـبـده ظـهـرت عـلـيـه مـواهـب الـفـتـاح

وإذا صـفـت لله نـيـة مـصـلـح مـال الـعـبـاد عـلـيـه بـالأرواح[4]

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيماً بين أبناء أمته، وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام، وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق، وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمُنذ عام 543هـ حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق، شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه[5]، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً[6] وأخذ يخرج إليه

---

(1) البداية والنهاية (16/ 382).

(2) الشبحة: التي تربط بها يد الفرس من لباد ونحوه.

(3) البداية والنهاية (16/ 406).

(4) الحركة السنوسية للصّلابي (2/ 7).

(5) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 25.

(6) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص: 308، 309 نور الدين محمود، ص: 25.

خلال المراحل التالية من الحصار ـ عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا: فما خاب قصده كما يقول ابن القلانسي[1]، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه؛ لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين[2].

وفي عام (547هـ) عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث[3] للخروج إلى قتاله، لم يخرج إلا القليل، لِمَا وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج. وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين[4]. وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا يدعون ليلاً ونهاراً أن يبدلهم الله سبحانه بالملك نور الدين[5]، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم، وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم[6]. وقد دخل نور الدين دمشق عام 549هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا ـ بتوفيق الله ـ ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله مُنذ سنوات وسنوات، يقال: إن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين[7]، وبعد أقل من ثلاث سنين، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق وتبع نور الدين في حملته تلك فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير[8].

وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع: طلب نور الدين عام (559هـ) نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك فكلهم

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، نور الدين محمود، ص: 26.
(2) زبدة الحلب (2/ 304، 305)، نور الدين محمود، ص: 26.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 26.
(4) مرآة الزمان (8/ 209، 210)، نور الدين محمود، ص: 26.
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 26.
(6) زبدة الحلب (2/ 304، 305).
(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 26.
(8) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 27.

وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أُنجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهّادها وعبّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه، وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز هو «أيضاً» وسار إلى نور الدين بنفسه.

إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها، وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكام والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا، فإن بمقدور القواعد الأكثر ثقلاً وتأثيراً يومذاك أن ترغمهم على الطاعة وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم، وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد[1]، وما من شك في أن انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفاً مخلصاً من أجل الأهداف الكبيرة، وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته[2].

سابعاً: اللياقة البدنية العالية:

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسداً قوياً قادراً على تحمل الأعباء والمشقات، ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة، ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه بما يتعلق بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعاً بلعبة الكرة أو الصولجة التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو[3]، ويصفه ابن الأثير بقوله: «من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان[4] فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب، وعندما احتجّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه؛ لأنه يلهو ويعذب الخيل لغير فائدة دينية قال: والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 28.
(2) المصدر نفسه، ص: 28.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 134.
(4) الجوكان: هو العصا التي تضرب بها الكرة.

ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[1].

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسيراً إسلامياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزهاد عندما كتب له[2]، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشفٌ وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين ولأجسام خيولهم، وإشغال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية، واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنود والقادة، وفي هذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الدين الرياضية في أعلى درجاتها، فهو يخاطب الزاهد حسب مستواه من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمُّت أو التعصُّب[3]، وبهذا الموقف يبين لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشمولي الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره: قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[4]. وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله[5].

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين، انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكاسه على جنوده وشعبه ودولته، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

---

(1) الباهر، ص: 168، 169.

(2) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 33.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 134.

(4) البخاري، كتاب: المغازي، باب: بعثة أبي موسى الأشعري، رقم 42.

(5) فقه النصر والتمكين، ص: 197.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا: أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56] وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حقق إنجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية. قال ابن الأثير: في حديثه عن نور الدين محمود: «وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة» ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرناها آنفاً ثم علق ابن الأثير بعد نهاية القصة فقال: «فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات يقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين»[1]. والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: 162].

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو: تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح[2]، وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده، وكان يمارس ألعاب أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق[3]، وكانت رحلات الصيد الممتعة من رياضته الأخرى، تحمل من الجدّ جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد، ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: **«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»**[4]. وقال: **«من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا»**[5]. وليس مهارات الصيد - في نظر نور الدين محمود زنكي - سوى محاولة، من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان، وحكى أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد: وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرّر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل، حيث أقيمت الاحتفالات، ورددت الأناشيد، وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي

---

(1) عيون الروضتين (1/ 360).

(2) فقه النصر والتمكين، ص: 190.

(3) القبق: لعبة القبق عبارة عن خشبة عالية في أعلاها خشبة مستديرة، توضع الخشبة في أرض مستوية ويتم رمي السهام عليها.

(4) مسلم، رقم 1917.

(5) مسلم، رقم 1919.

القبق، كما يقول العماد الأصفهاني: «فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل»[1].

ثامناً: تجرده وزهده الكبير:

فهم نور الدين محمود زنكي رحمه الله من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرَّرَ من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»**[2].

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العزّة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبي ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[3]، **«ألا إن الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلّماً»**[4].

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**، ويقرن بين إصبعيه السَّبابة والوسطى[5].

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: 39-40][6]، كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع رحمه الله عن الدّنيا وحطامها، وزهد فيهما، وإليك شيئاً من مواقفه:

---

(1) البرق، ص: 150، 154.

(2) سنن الترمذي، كتاب: الزهد، رقم 2333، وهو حديث صحيح.

(3) المصدر السابق، رقم 2320.

(4) المصدر السابق نفسه، رقم 2322، حسن غريب، قاله الترمذي.

(5) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة، رقم 867.

(6) من أخلاق النصر في جيل الصحابة، د. السيد محمد نوح، ص: 48، 49.

1 ـ قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه في الميدان بالرّها والشمس في ظهورنا، فكلّما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت: رضي الله عن مَلك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما:

مَثَلُ الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً ... وإذا ولّيت عنه تبعك[1]

2 ـ تشبه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده، وقد كان الأخير حاكم لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله، إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله ولم يتعداه إلى غيره البتة[2]، قال العماد الأصفهاني: «كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس»[3]، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر، ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر[4].

3 ـ وأما ما يُهدى إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه، بل يعرض نظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصّل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة[5].

4 ـ ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة[6]، وحكي لي عنه: أنه

---

(1) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 261).

(2) الباهر، ص: 164، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 128.

(3) الكواكب، ص: 53، 54 نور الدين محمود، ص: 39.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 39.

(5) البرق، ص: 143، 144، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 40.

(6) الباهر، ص: 164، نور الدين محمود، ص: 40.

حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهّبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر[1].

5 ـ قال رضيع الخاتون «زوجة نور الدين»: إنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك تنكر واحمرّ وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها ما لها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ومعدّة لفتق ـ إن كان ـ من عدوّ الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال لي: بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً[2].

6 ـ قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[3]. وكان عمر الملّاء رجلًا من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه[4]. وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمدّ يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط[5].

* وأما مقرّ سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن، فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب، فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح[6]. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب[7].

---

(1) الباهر، ص: 165، نور الدين محمود، ص: 40.
(2) المصدر السابق.
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 41.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 41.
(5) مرآة الزمان (8/ 315)، نور الدين محمود، ص: 41.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 41.
(7) البرق، ص: 153، 154، كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين، ص: 410.

7 ـ زهده في الألقاب: عندما تفقُدُ قيادةٌ ما القُدرة على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وانكماشها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفاً أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف، وخوفاً أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون، وأما نور الدين الذي علَّمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا إلى ما يريد الله؛ تَلَقَّى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها «قائمة» بألقابه التي كان يُذكر بها على منابر بغداد: . . . اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، وشمس المعاني وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين.

لكن نورالدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحداً يقول: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي[1]، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضع وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه. . روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني ـ بعد أن استفزته كثرة الألقاب ـ يأمره أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل ؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد: اكتب به نسخاً إلى البلاد[2]. ثم أضاف ثم يبدؤون بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفّقه. . من هذا الجنس[3].

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح النفاق والتزلف للمسؤولين، لأن ذلك يوفر النقد البنّاء وحرية

---

(1) الكواكب، ص: 68، 69، نورالدين محمود، ص: 43.

(2) مرآة الزمان (8/ 322/ 323)، نور الدين محمود، ص: 42.

(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 274.

الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين، زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده فقال:

يغشى الوغى أفرس فرسانها ... وفي التقى أزهد زُهّادها[1]

ويقول أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زهدا[2]

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول:

لا زلت تقفو الصالحين مسابقاً ... لهُم وتَطلعُ خلفك الأبرار

نفس السيادة زهد مثلك في الذي ... فيه تفانت يَعْرُبٌ ونزار[3]

تاسعاً: شجاعته:

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه سنة (521 ـ 541هـ) ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة، وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: «وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب يقدم أصحابه عند الكرّة ويحمي منهزمهم عند الفرّة»[4] وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام (558هـ / 1163م) ولم يتمكن هو ومن

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي، ص: 64.

(2) المصدر نفسه، ص: 64.

(3) ديوان ابن منير، ص: 192، نور الدين في الأدب العربي، ص: 65.

(4) الباهر، ص: 168، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 125.

كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حمص مسافة اثنتي عشر كيلو متراً وتوقف حتى تجمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيام والسلاح والمؤن من حمص وحلب وأقام معسكره في نفس المكان، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلّوا أم كثروا والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري[1]. ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبرَّ نور الدين بقسمه[2]. وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويتغلب عليها، يقول ابن القيسراني:

من باتت الأسد أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغلب إلا من له الغلب[3]

ويقول أيضاً:

أنت حيناً تقاس بالأسد ... الورد وحيناً تُعدُّ في الأولياء[4]

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته، يقول العماد في مدحه:

يا غالب الغلب الملوك وصائد ... الصيّد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من أربابها ... حزت الفخار على ذوي التيجان[5]

وقال ابن قسيم الحموي:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرّمح دلّ على القساوة لينُهُ

ووراء يقظته أناة مُجرِّب ... لله سطوة بأسه وسُكُونه[6]

وقال ابن منير:

ملأ البلاد مواهباً ومهابة ... حتى استرقت آيه أحرارها[7]

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 125.

(2) الباهر، ص: 117، 118 دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 126.

(3) كتاب الروضتين (1/ 154).

(4) المصدر نفسه (1/ 245).

(5) ديوان العماد، ص: 410، نور الدين في الأدب العربي، ص: 69.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.

(7) ديوان ابن منير، ص: 217، نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.

وقال أيضاً:

متهللٌ والموت في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه[1]

عاشراً: مفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة[2]، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نواقضه، وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا: قال له قطب الدين النيسابوري ـ الفقيه الشافعي ـ مرة: بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم[3] ـ فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد[4]، فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومَن محمود حتى يقال له هذا، قبلي مَن حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً[5]. وهذا الذي قاله نورالدين رَحِمَهُ اللَّهُ يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وما الناس ابتداءً من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات «فاعلة» في يده يحرّكها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون، عزّ الله وجلّ وكفى[6]. هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء[7].

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً وتضعه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقياً.. فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه ﷻ ومرّغ وجهه وتضرع وقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيشى فضول محمود في الوسط ؟ يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنك يا رب إن نصرت

---

(1) نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.
(2) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 359).
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 339.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 128.
(5) الباهر، ص: 169، الكواكب الدرية، ص: 30.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 44.
(7) المصدر نفسه، ص: 44.

المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً مَن الكلب محمود.. حتى يُنصر؟[1]

وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمس مائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له: تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجّالة المسلمين مع رجالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم موليًا وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسرّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيَّابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعتُ المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيّك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُّعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا عليه[2].

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائياً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله متبصراً بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي - عبر هذه الرؤية - هذا القائد أو ذاك[3]. وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها[4]. وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممَّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون: ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سؤله وما يَرُدّ يده خائبة، فيظفر علينا، فهذا كلام الكفار في حقه[5].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر،

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 180.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 377، 378).
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 44.
(4) عيون الروضتين (1/ 255).
(5) المصدر نفسه (1/ 255).

ومهما أعد المسلمون من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساؤوا استخدامه[1]، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء والفقراء والفقهاء كذلك، وكان مستوعباً لقول رسول الله ﷺ: **«هل تنصرون إلا بضعفائكم»**[2].

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين: مخ العبادة[3]، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ: **«الدعاء هو العبادة[4]، ومفتاح الرحمة»**[5] يستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تتقطع بهم الأسباب.

أيها الإخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية، فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60] وغالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186].

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفقه الدعاء ومقدرته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضرعه وانكساره بين يدي المولى ﷻ.

الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله، ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور، قال العماد الأصفهاني: حضرت عند نور الدين بدمشق - في شهر صفر - والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها

(1) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (1/ 241).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص: 6.

(3) سنن الترمذي، رقم 3368.

(4) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك (1/ 491).

(5) ذكره الهندي في كنز العمال، رقم: 3116.

ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها[1]، ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام (566هـ) فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد[2]، وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السِّباع وحواصل الطير[3]، كانت عقيدة الشهادة تحركه، وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت، فأسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها[4].

إن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع، منها قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: 140]. وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله ﷻ لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه[5]، والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69]. في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة يقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: 69].

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى

---

(1) البرق، ص: 126، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 45.

(2) الباهر، ص: 153، 154، نور الدين محمود، ص: 45.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 35).

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 31.

(5) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 95.

الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: 169-170]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: 154].

وورد في السنة الثابتة عن النبي ﷺ: «**إن أرواحَ الشهداء في جوف طير خُضر لها قناديلُ معلّقة بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلعَ إليهم ربهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ فعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يارب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا**»[2]. فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فضل المجاهدين على القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفاً[3]. ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد[4]، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها[5] ويحافظ على الجماعة، وكان كثير الابتهال إلى الله ﷻ في أموره كلها[6]. وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح[7]، وقال ابن الأثير: حدثني صديق لنا بدمشق ـ كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين ـ فقال: كان نور الدين يصليّ فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[8]. وقال ابن كثير: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية،

---

(1) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 95، 96.

(2) مسلم، كتاب الإمارة (3/ 1502).

(3) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 97.

(4) نور الدين في الأدب العربي، ص: 48.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين الرجل والتجربة، ص: 46.

(6) البداية والنهاية (16/ 490).

(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 46.

(8) الباهر، ص: 164، نور الدين محمود، ص: 46.

محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتاً وقوراً[1]، كان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده[2]، وعبارة: «فكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده» هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كان طبيعة تَعَبّد نور الدين يدفعه إلى المسؤولية ويجعله في قلبها وهو أعمق وعياً وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذَكاء[3]، لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: 55-56] فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ[4].

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه:

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة، قال العماد: وكلف نور الدين.. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى..وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوّين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج، قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار،

---

(1) الكواكب، ص: 54، نور الدين محمود، ص: 46، 47.

(2) المصدر نفسه، ص: 54.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 46

(4) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، الصلاّبي ص: 161.

وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كلّه، وعين له وقوفاً[1].

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمره، ومشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيّته تغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول[2]. وأدرّ على الضعفاء والأيتام الصدقات، حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلّمي الخط والقرآن وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجدين، وجهز عسكراً يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأُحد، وكانت قد دفنتها كثرة السيول، وعمّر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم بقدر كفايتهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحرّان والرقة، ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلاّبها[3].

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير:

يـأيـهـا الـمـلـك الـمـنـادي جـوده ... فـي سـائـر الآفـاق: هـل مـن مـعـسـر

ولأنـت أكـرم مـن أنـاس نـوّهـوا ... بـاسـم ابـن أوس واسـتـخـضـوا الـبـحـتـري

ذلّـت لـدولـتـك الـرقـاب ولا تـزل ... إن تـغـز تـغـنـم أو تـقـاتـل تـظـفـر[4]

(1) عيون الروضتين (1/ 346).

(2) المصدر نفسه (1/ 346).

(3) المصدر نفسه (1/ 351).

(4) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 170.

كان نور الدين ـ كما يصفه كثير من المؤرخين ـ: قليل الابتهاج بالشعر[1]، لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل[2].

إن نور الدين هُنا يُذَكِّرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية، ولكن بتوجّسه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين ـ كسلفه ـ لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سُئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين، فأجاب في إحدى مقاماته: وهو سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تُجزى[3]. وعبارة «غير أنه» ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة «أعطوه ألف دينار» أو عبارة «سل ما شئت». ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين: صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول: ما كان ـ نور الدين ـ يبذل أموال المسلمين إلّا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز ـ وهو من سادات التابعين في الشام ـ أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلًا حيث تحبّون، وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في مدح نور الدين:

في كل عام للبرية ليلة ... فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقادِ

لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران نار قرى ونار جهادِ

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 135.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 136.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 137.

أبداً يصرّفُها نداه وبأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلادِ
مَلِك له في كل جيد منةٌ ... أبهى من الأطواق في الأجيادِ
أعلى الملوكِ يداً وأمنعهم حمًى ... وأمدهم كفاً ببذل تلادِ
يعطي الجزيل من النوال تبرُّعا ... من غير مسألة ولا ميعادِ
لا زال في سعد وملك دائم ... ما دامت الدنيا بغير نفادِ[1]

وعندما أسر الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه فلم يفعل، قال أسامة: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوية يقال له: المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر[2]. والملاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني، وابن منير، والعماد الأصفهاني، وغيرهم، ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسب أو توخّي التزلف[3]. يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القيسراني بنور الدين ومدحه له: ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعضّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثّل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك[4].

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا يبتهج بالمدح فهذا تواضع منه، لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول[5]. فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع الشعر، بل كان يحب الشعر الملتزم، فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال:

للغزو نشاطي، وإليه طربي ... ما لي في العيش غيره من أرب

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 197.
(2) كتاب أخبار الدولتين (1/ 358).
(3) نور الدين في الأدب العربي، ص: 195.
(4) صدى الغزو الصليبي، ص: 159، 160.
(5) نور الدين في الأدب العربي، ص: 197.

بالجد وبالجهاد نجح الطلب والراحة مستودعة في التعب
لا راحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طرباً إلى العلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العزّ والقدرة في غير جهاد عجز[1]

ويقول الأصفهاني في موضع آخر: كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية، فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:

عقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان[2]

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني، والعماد الأصفهاني، وابن منير، وابن الدهان الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً[3]، وأما ما تضمنه قول الوهراني، وقول ابن منقذ من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر مستبعد، وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين، كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة ابن منقذ نفسه، ولما اختصَّ بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة[4].

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبي وبكى عند نور الدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف - يعني وقف الجامع - فسأل عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل: كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرّق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنّ الإنعام كان في حقه[5].

---

(1) نور الدين الرجل والتجربة، ص: 138.
(2) المصدر السابق.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 139.
(4) نور الدين محمود في الأدب العربي، ص: 198.
(5) عيون الروضتين (1/ 357).

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال فيه ابن عساكر: «.. ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دقها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان متأتٍ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتني لها بأوفر الأعواض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينية، متتبع للآثار النبوية، مواظب على الصلوات في الجماعات، مراع لآدابها في الأوقات، مؤدياً فروضها ومسنوناتها، معظّم لقدرها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مرّ الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج، متحرّ في المطاعم والمشارب والملابس، متبرّئ من التمادي والتباهي والتنافس، عريٌ عن التجبر والتكبّر، بريء من التنجيم والتطيُّر، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيّره.

ولقد حكى لي عنه من صحبه في حضره وسفره أنه لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون، واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمه من دم في طلبهما، ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسليمه من أهله بالأمان، وَوَفِيَ لهم بالعهود والأيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان. وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم الجرايات، وولّى مَن كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطاً وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتّضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس، ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد

والشقاق..» إلى أن قال: «فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء، ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويُرجي الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية عليه، فقد ألقى أزمتنا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ذكرت منها غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلو القدرة، فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير على ما يشاء قدير»[1].

إن ما ذكرته من صفات للملك العادل نور الدين ثمرات زكية لإيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه، فقد امتلأت نفسه بمبادئ الإسلام على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً، إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام، وهذا الإيمان هو الذي حوّله من أمير إلى مجاهد ومن حاكم سياسي إلى زاهد، وهو الذي أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتغلب عليها رغم قلة الموارد، ولم يُعرف عنه تعصباً وكانت نفسه سمحة اكتسبها من طبيعة الإسلام السمحة، إنه حارب الصليبيين على أنهم أجانب مغتصبين، لا على أنهم نصارى، ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً أو راهباً على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جميعاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين فكانوا على عداوتهم له يحترمونه ويعترفون له بالامتياز عليهم، حتى أن المؤرخ وليم الصوري، الذي أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، لم يستطع إلا أن يعترف بفضله وعدله وصدق إيمانه[2].

المبحث الثالث
أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي، وتمكينه في إيجاد

(1) تاريخ دمشق الكبير (60/ 122 ، 123).

(2) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (2/ 742).

وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها، قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين . . علّمنا منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العقلاء يكمل الأجر ويبقي الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء، فقال عز من قائل: «﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 90]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: 120] فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقاً عليَّ بذل الوسع في مساعدته، واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى[1].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر ابن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه، واهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء، يقول شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي: «. . فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خِلّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين رضي الله عنهما في العدل والجهاد، واجتهدا في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد وهما ملِكا بلدتنا وسُلطانا خُطّتنا، خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 2) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 356.

وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجّة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسدّد..»[1] هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فلله دَرّهُما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما: حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عِيّ، وظهرت من خالقهما العناية... والفضل للمتقدِّم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلّه، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة[2]... فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبس الله هاتيك العِظامَ وإن بَليْن تحت الثرى عفواً وغفرانا

سقى ثرى أُودِعُوه رحمةً ملأتْ مثوى قبورهم روحاً وريحانا[3]

وإليك أخي أخيراً أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته:

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية «براغماتية» لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقِيماً ومبادىء أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدماً صوب آفاقها الرحبة الشاملة.

إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وَبَعْث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود، فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية، وكسب واحتراف، وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة، وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى - فعلاً - إلى أن تنتقل هذه الدعوة - رغم المصاعب والعقبات - من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[4]، قال: «ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.
(2) المصدر نفسه (1/ 27).
(3) المصدر نفسه (1/ 28).
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل»[1]. وقال: «نحن شحن[2] للشريعة نمضي أوامرها»[3]، وقال مخاطباً أحد ولاته: انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميّز بين المحاسن، والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة[4]. وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: «والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي»[5]، وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: «إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع»[6]، وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض[7]، يقول ابن الأثير: «كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها»[8]. ويقول في مكان آخر: «وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه»[9]. ويقول أبو شامة: «سمعت أبا شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين»[10]، ويقول في مكان آخر: «كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها»[11]. ويقول ابن كثير: «كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة»[12].

ويقول ابن قاضي شهبة: كان نور الدين ـ لما صارت له الموصل ـ قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا

---

(1) الباهر، ص: 173، 174.

(2) شحن: أي الشرطة: أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.

(3) الباهر، ص: 166، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

(4) البرق، ص: 146، 147.

(5) الكواكب، ص: 25، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

(6) كتاب الروضتين (1/ 36، 37).

(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

(8) الباهر، ص: 166، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

(9) الباهر، ص: 165، 166.

(10) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 87.

(11) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجرب، ص: 87.

(12) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 87.

بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء ـ أحد شيوخ الموصل الصالحين ـ وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم: وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة أو نقصان، ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب واعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له[1]، فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم[2].

فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد[3]. وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكّن أحداً من إظهار ما يخلف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته[4]، وكان لا يقدم على إجراء ما، عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغرّاء، بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[5].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد. . إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج، وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلّاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ ـ برهان

---

(1) عيون الروضتين (1/ 276).

(2) المصدر نفسه (1/ 276).

(3) المصدر نفسه (1/ 276).

(4) الكواكب، ص: 25 ، 32، 33، نور الدين محمود، ص: 87.

(5) مرآة الزمان (8/ 247)، نور الدين محمود، ص: 87.

الدين البلخي - وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تُنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله[1]، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا، ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين.. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام، وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما ينذّ الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[2]. لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام. فقد حكى الشيخ أبو البركات: أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرّ أثناء الحديث: أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك؛ لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد، مرَّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك[3]. رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن[4]. وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهادين من عدوٍّ ... فهو طول الحياة في هيجاء
أيها الملك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل ... لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التُقى على الأتقياء[5]

وقال فيه ابن منير:

عفّى جهادك كل رسم مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار

(1) زبدة الحلب (2/ 215)، نور الدين محمود، ص: 88.
(2) نور الدين محمود الرجل التجربة، ص: 88.
(3) عيون الروضتين (1/ 384 ، 385).
(4) الكواكب، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 89.
(5) كتاب الروضتين (1/ 285 ، 286).

ومحا المظالم منك نظرة راحم ... لله في خطراته أسرار

غضبان للإسلام مال عموده ... فلنوره مما عراه نوار

لم يَبق ما كسى مسلم سلقاً ولا ... ساع لمظلمة ولا عشّارُ

همدوا كما همدت ثمود وقادهم ... لخسارهم مما أتوه قدارُ

العار في الدنيا شقوا بلباسه ... ولباسهم يوم الحساب النار

كم سيرة أحييتها عمريّة[1] ... رفعت لها في الخافقين منار

ونوافل صيّرتهن لوازماً ... بأقلها تستعبد الأحرار[2]

أما نهارك فهو ليل مجاهدٍ ... والليل من طول القيام نهارُ[3]

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.. إلخ وسوف تتضح بإذن الله تعالى هذه الآثار في هذا الكتاب.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح، وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار[4]. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

(1) عمريّ: قصد ابن عمر بن الخطاب.

(2) عيون الروضتين (1/ 393).

(3) المصدر السابق.

(4) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 357.

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: 65]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: 55].

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة، وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير: . . كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها، ورفع العلم والشرع، وليست الدنيا عنده بشيء رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحيّ على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً[2]، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات: قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حرّان[3]، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها، ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية، وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود[4] حتى خلّص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية، وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة[5]، يقول فيها: وطالما بقيت «280» سنة مملوءة بحزب الشياطين. . . حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض[6]. وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 330.

(2) المصدر السابق، ص: 330.

(3) كتاب الروضتين (1/ 24) الجهاد والتجديد، ص: 330.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 331.

(5) المصدر نفسه، ص: 331.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 331.

دور نور الدين في دعم المذهب السني:

مهدت مدارس نظام الملك رَحِمَهُ اللَّهُ السبيل، ويَسَّرَته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق مُعبداً لتحقيق الهدف الذي أُنشئت النظاميات من أجله، وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني، وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة، ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر، وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب السنة، إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث، وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[1]:

1 ـ جهود نور الدين في حلب:

أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني سنة (333 ـ 356هـ/ 944 ـ 967) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية، فيسَّروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها، ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غيَّر سعد الدولة أبو المعالي سنة (356هـ ـ 381هـ/ 967م ـ 991م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام (367هـ/ 977هـ) وزاد فيه: حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر[2]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً[3]. وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أَمِل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن، ومن هؤلاء وأولئك تكوَّن مجتمع الشيعة في حلب، ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين، فقد كان المذهب الشيعي متغلغل في حلب[4]، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة: ففي رجب من عام (543هـ/ 1148م) ـ أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب ـ رأيناه يأمر الشيعة بترك «حي على خير العمل» في الأذان، وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ ويحذرهم من مغبة العودة إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 206.
(2) زبدة تاريخ الحلب (1/ 172).
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 207.
(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 207.

صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة[1]، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي[2]، وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة وهي: إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: **إحداهما للحنفية**، وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته (543هـ/ 1148م)، وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء، وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين: أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع[3].

وكانت **المدرسة الثانية** التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النِفَّريَّة النورية، وقد أنشأها سنة (544هـ/ 1149م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت 578هـ، 1182م) أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام (540هـ/ 1145م) وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة[4]، ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام، ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[5].

أ ـ الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرَّجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر، لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 202).
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 85.
(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 209، نقلاً عن زبدة الحلب.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 209.
(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 209.

على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين، إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير، ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة، والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت: بالنورية الصغرى، وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين[1]، ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المُسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية، لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب، ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[2].

ب ـ **الاستفادة من جهود علماء السنة**: لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص **إحداهما**: لفقهاء الحنابلة، **والأخرى**: للمالكية، وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة[3]، وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[4].

ج ـ **دعم التصوف السني**: اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة، وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاهاً له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة، خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب، وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق، ص: 210.

(2) المصدر نفسه، ص: 211.

(3) المصدر نفسه، ص: 211.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 87.

العصر محل تقدير الحكام واحترامهم، وخاصة نور الدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق: اثنتان منها للرجال، وواحدة للنساء[1]، واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية، ومدّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً، والتي كان من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً، ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك[2].

د ـ دور تدريس الحديث: اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف، وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث، إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف ـ المجانب للحق والعدل والصواب ـ إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف، وتشييد معاهد دراسية خاصة به، كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية، من أثر ذلك: العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تَمَثَّل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبىء الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به، خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته، هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[3].

هـ ـ موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها، وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام (552هـ/1157م) عندما مرض نور الدين بحلب

---

(1) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني، ص: 212.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 185.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 212.

حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته، شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة، وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه، فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم، وبيَّن لهم أن نور الدين قد عوفي، وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة[1].

و ـ وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام (564هـ/ 1169م) عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع، وكان يتخذ مكاناً للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة[2]، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة، وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام[3]، كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين[4]، كما كان نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن[5]، فالتصدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وإعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحفة.

---

(1) زبدة الحلب (2/ 308، 310) التاريخ السياسي والفكري، ص: 213.

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 213.

(3) المصدر نفسه، ص: 213.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 213.

(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 213.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية، حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة، وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد (ت 684هـ/ 1285م) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[1]، وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام (600هـ/ 1203م) وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون، وبأفعال السنة يتظاهرون، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة[2]، وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة[3]، وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

2 ـ جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق:

استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام (549هـ/ 1154م) ومن ثَمَّ واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية، وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً، ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية، ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائد تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسة[4]:

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 214.

(2) نهر الذهب في تاريخ حلب (1/ 191، 193)

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 214.

(4) المصدر نفسه، ص: 215.

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية، وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف: بابن العقادة ت (596هـ/ 1199م) ووصف ابن جبير هذه المدرسة عندما زارها في عام (580هـ/ 1199م) بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً.. وهي قصر من القصور الأنيقة[1]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة، وهي المدرسة النورية الصغرى[2]، وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مُؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تُعنى بتراث الإمامين العظيمين، فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة (وهم مالكية بالجامع الأموي) ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة[3]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم خانقاه خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف: بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها[4]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه[5].

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصبًا على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثَمّ بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (571هـ/ 1175م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلّكان بأنه: من أعيان الفقهاء والشافعية، ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[6]، وهذه العلوم الثلاثة: أعني الحديث، والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة، ولذلك قرّبه نور الدين منه وأدناه من مجلسه واستمع إليه، وفوّض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار

---

(1) رحلة ابن جبير، ص: 231.

(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 648).

(3) رحلة ابن جبير، ص: 231، 232، التاريخ السياسي والفكري، ص: 216

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 216.

(5) مرآة الزمان (8/ 272)، التاريخ السياسي والفكري 216.

(6) وفيات الأعيان (2/ 471، 473).

الحديث النورية، وعناية نور الدين بالحديث الشريف ـ على هذا النحو ـ تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه، في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية، فقد شارك العلماء في هذا الميدان فَحَدَّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[1].

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية، فإن نور الدين بنى في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن ـ بالمساجد التي شيدها ـ أوقافاً معلومة[2] يذكر ابن كثير: أن نور الدين وقف وقفاً على من يُعَلِّم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة[3]. وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية ـ على اختلاف أنواعها ـ الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه، حتى إن ابن الأثير ذكر أنه: بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام (608هـ/ 1211م) تسعة آلاف دينار كل شهر[4]، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم[5]، ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي سنة (572هـ/ 1176م) النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

كأنها جنة الخلد دانية ... قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع جامع للدين معمور
يتلى القرآن به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت ... أوصاف مولى بنشر العدل مشهور

---

(1) الباهر، ص: 165، كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي، ص: 217.
(2) الباهر، ص: 172، التاريخ السياسي والفكري، ص: 217.
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 217.
(4) الباهر، ص: 172، التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.

الملك والدين والدنيا بأجمعها وللخليفة من أنواره سور[1]

3 ـ دور نورالدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني:

لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثَمّ لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم، وتنتشله من مستنقع البدع والضلال، وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أُنشىء منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قُدِّر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود ـ إن لم يكن كلها ـ إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة، وهي: أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[2]؟ يذكر المقريزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة «الظافر» في المحرم سنة (549هـ/ 1154م) وتولية ابنه: «الفائز» وكان طفلاً صغيراً، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين، وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في «حسن المحاضرة»[3]، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي، هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك، وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[4].

ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين، إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي، وهذه الحقيقة عَبَّر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته، عندما أرسل إليه صلاح الدين من مصر هدايا وتحفاً فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه[5]، وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.

(2) المصدر نفسه، ص: 218.

(3) حسن المحاضرة (2/ 3)، اتعاظ الحنفا (3/ 223).

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 219.

(5) مرآة الزمان، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 219.

السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون، كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته، ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى، ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها، قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها[1]، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر: ... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك[2].

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر، عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، حتى تمّ الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة، وذلك في ربيع الآخر سنة 564هـ/ 1169م) ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[3].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 220.

(2) المصدر نفسه، ص: 220.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 220.

الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة: أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه، وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها، ومما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق.. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله[1].

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر، فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي «المستضيء» في عام (566هـ/ 1170م) كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه، إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤول أمره إلى الفساد، وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام (567هـ/ 1171م)، وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية[2]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلى عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين[3]، وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 220.
(2) التاريخ السياسي والفكري، ص: 221.
(3) المصدر نفسه.

الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية[1]. وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر، فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيَّد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك[2]. ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنيح والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج[3].

4 ـ عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي:

إن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى، واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة، ولا يسمح لأحد أن يتناول واحداً منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سمواً، وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم، كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سنحت له ظروفه بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع مع الناس للحافظ ابن عساكر، ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي[4].

كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة، والاستمرار في المقاومة للصليبيين، ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة. وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 221.

(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 401).

(3) وفيات الأعيان (4/ 272).

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 224.

الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبوهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[1]. إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتاة المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لا بد فيه من وحدة الصف، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: 100] فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[3]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم»[4]، وعنه رضي الله عنه: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[5]. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي، التي تُساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد: العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 225.
(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 263، 264.
(3) مسلم، كتاب الصحابة، رقم 2533.
(4) رواه مالك الموطأ، رقم 1619.
(5) حلية الأولياء (1/ 379).

بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴿٩٠﴾ [النحل: 90]. وأمرُ الله بفعلٍ كما هو معلوم يقتضي وجوبه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: 58]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]، وقال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر**»[1]، والعدل أساس الحكم[2]، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات وأهمِّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[3]، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي: بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه، فقد قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»[4]. وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: 22]، وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52]، وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته[5] وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم، ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته[6].

وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخوَّل القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادىء الحق والعدل،

---

(1) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث 1050 حديث حسن.

(2) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (1/ 481).

(3) فقه التمكين في القرآن الكريم للصَّلّابي، ص: 455.

(4) مختصر صحيح مسلم، للمنذري، رقم 1828.

(5) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 205.

(6) أيعيد التاريخ نفسه، ص: 98.

وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتُوّجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة مَحْكمة عُلْيا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[1]. وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي[2]. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي ـ الذي كان أحد نوابه في حلب ـ هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد، فقال: والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله): فبالله عليكم. . وإلا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[3]، وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جَرَمَ أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها[4].

1 ـ دار العدل أو المحكمة العليا:

كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل)، وكانت أشبه بمحكمة عُليا لمحاسبة كبار الموظفين، ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد جور عدد من كبار الأمراء في دمشق ـ وبخاصة أسد الدين شيركوه ـ وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل[5]. يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه، فامضوا إلى كل من

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 75.
(2) الكواكب، ابن قاضي شهبة، ص: 25، نور الدين محمود، ص: 75.
(3) المصدر نفسه.
(4) الباهر، ص: 166.
(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 76.

بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى على جميع ما بيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[1].

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق[2]، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل: أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله[3]، وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب، لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الصعيف بالمقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة[4].

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير: ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده[5]، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق، ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم[6]، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب، حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف[7] وفي الثانية ألفاً وخمسمائة[8]، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور

(1) الباهر، ص: 168، نور الدين محمود الشهيد، ص: 76.
(2) رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود، ص: 326.
(3) كتاب الروضتين (1/ 62).
(4) المصدر نفسه (1/ 62).
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 77.
(6) الكواكب، ص: 25، نور الدين محمود، ص: 77.
(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 77.
(8) المصدر نفسه، ص: 78.

الدين فإنهم لم يمسوا بأذى ـ رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي ـ وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يعرف عنه[1] أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جُلة أهله المسلمين، ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه[2].

2 ـ استجابته للقضاء:

طلب مرة من قِبل أحد المدعين، فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحضَر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴿٥١﴾﴾ [النور: 51]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[3]. ويوماً كان يلعب الكرة ـ هوايته المفضلة ـ في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين، وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه[4]. تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير[5]، وفي (عام 558هـ ـ 1162م) ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 78.

(2) نور الدين محمود حسين مؤنس، ص: 367، 368.

(3) الباهر، ص: 166، 167.

(4) المصدر نفسه، ص: 166، 167.

(5) الباهر، ص: 167، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 79.

بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[1].

3 ـ لا عقوبة على الظنة والتهمة:

لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد[2]، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة وآمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر[3].

4 ـ من عدله بعد موته:

ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يُحكى: أن إنساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها لِمَا رأى من عدل نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، فلمّا توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه، وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يُحصى وكلّهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد ولرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عَدَل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه[4].

5 ـ رقبتي دقيقة: لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى

قال ابن الأثير: وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآه فأنكر على النّواب قال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه؟

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

(3) عيون الروضتين (1/ 364).

(4) المصدر نفسه (1/ 365).

فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[1].

6 ـ رجال القضاء في دولة نور الدين:

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده ـ كما رأينا ـ قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه، وكبار أمرائه، ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا مُنذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها[2].

أ ـ القاضي كمال الدين الشهرزوري: حدث في مطلع (عام 555هـ / 1160م) أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري، وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له: المشهور بالتقدم ووفور العلم، وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال، في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما، فإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه[3]، كان كمال الدين قد ولد (عام 491هـ/ 1097م) وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين[4]، وقد تخرّج من النظامية[5]، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين[6]، وأصبح بعد أقل من عامين (557هـ ـ 1161م) قاضياً لقضاة الدولة كلها، وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه، وهناك من يقول: إن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء (عام 555هـ/ 1160م) وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد: الحاكم المطلق[7]،

---

(1) عيون الروضتين (1/ 364).
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 82.
(3) المصدر نفسه، ص: 82.
(4) المصدر نفسه، ص: 83.
(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 222.
(6) قضاة دمشق، ص: 47، 48.
(7) البرق، ص: 222، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.

وأصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور[1].

وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة، فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[2]. وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء[3]، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية، ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية، بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها[4]، وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب، وأوقاف الدولة، وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار، وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه[5]، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[6] وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد[7]، كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها، فضلاً عن النظر في أمور ديوانها، وكان محيي الدين هذا، كما يصفه العماد: من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية مُنذ سنة 535هـ ـ 1140م[8]، كما اعتمد في حماه وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم[9]. وعندما دخل الموصل (عام 566هـ ـ 1170م) أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[10].

ب ـ الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون: تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه[11]، فقد ولد بالموصل (سنة 492هـ أو 493هـ ـ 1099م)، وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب (سنة 545هـ ـ 1150م)، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها (عام 549هـ ـ1154م) ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب، ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به، وكان فقيهاً من الطراز الأول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره،

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(2) الخريد قسم الشام، ص: 246، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(3) البرق، ص: 222، 224.
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(5) البرق، ص: 146، 147.
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(9) قضاة دمشق، ص: 47، 48، نور الدين محمود، ص: 84.
(10) البرق، ص: 97، نور الدين محمود، ص: 84.
(11) البرق، ص: 100.

وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل، وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه الإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ صلاحيات واسعة[1]. كما اعتمده عام (566هـ ـ 1170) رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[2]. وقد توفي عام (585هـ ـ 1189م)[3].

7 ـ رفع الضرائب والمكوس:

لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي 45% وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره[4]، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة: أن الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرَّع ويقول: اللهم ارحم العشّار المكّاس.. وكان قد دعا أحد معاونيه ـ موفق الدين خالد ـ وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبت ما أثبته الله عليكم[5]. وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة (566هـ)، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يُقرأ على الناس فيه: وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل[6]. وقُرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام 567هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم.. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب[7]. وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه، ومن قرأه أو قُرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً

(1) وفيات الأعيان (3/ 53، 56).
(2) مرآة الزمان (8/ 283).
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 85.
(4) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 362).
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 327.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 328.
(7) المصدر نفسه، ص: 328.

لما أمر به[1]، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم؟ (أي رواتبهم) فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات (أي من هذه الموارد) نتركها ونقعد ولا نخرج[2]. ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب، وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من التُّجّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه ـ يعني من أموالهم ـ فتقدّم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك[3].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته، فأمره نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرّان وسنجار والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه ترقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار ـ أبادهم الله ـ عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين[4]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: 10]، وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمريَّة وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدّي، وأقرّ الحق مقرَّه لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: 160]، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 261]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيَّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 38-40] علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتقليد، ص: 238

(2) المصدر نفسه (1/ 67).

(3) المصدر نفسه (1/ 69).

(4) المثاغرين: سكان الثغور.

[الانفطار: 19] فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار[1].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام، بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (165,000) مائة وخمسة وستين ألف دينار[2]، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال[3] ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعاً[4].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس، وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العشّار المكّاس، وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في جِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم[5]، ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي، فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها:

مثْلُ وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامِة والسماء تمور

إن قيل نور الدين رحت مسلِّماً ... فاحذر بأن تبقى وما لك نور

أنَهَيْتَ عن شرب الخمور وأنت من ... كأس المظالم طافحٌ مخمورُ

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 70).
(2) الجهاد والتجديد، ص: 329.
(3) المقدمة، ص: 286، معوقات الجهاد (1/ 422).
(4) المقدمة، ص: 290.
(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 54).

عـطَّـلْـتَ كـاسـاتِ الـمُـدامِ تـعـفُّـفـاً وعـلـيـكَ كـاسـات الـحـرامِ تـدورُ
مـاذا تـقـول إذا نُـقـلـت إلـى الـبـلـى فـرداً وجـاءك مـنـكـرٌ ونـكـيـرُ
وتَـعَـلَّـقـتْ فـيـك الـخـصـوم وأنـت فـي يـوم الـحـسـاب مُـسَـحَّـبٌ مـجـرورُ
وتَـفَـرَّقَـتْ عـنـك الـجـنـودُ وأنـت فـي ضـيـق الـلُّـحـود مُـوَسَّـدٌ مـقـبـورُ
وَوَدِدْت أنـك مـا وَلـيْـتَ ولايـة يَـومـاً ولا قـال الأنـام أمـيـرُ
وبـقِـيْـت بـعـد الـعـزِّ رَهْـنَ حُـفـيـرة فـي عـالـم الـمـوتـى وأنـت حـقـيـر[1]
وَحُـشـرتَ عُـريـانـاً حـزيـنـاً بـاكـيـاً قـلِـقـاً ومـا لـك فـي الأنـام مُـجـيـرُ
أَرضِـيـتَ أن تـحـيـا وقَـلْـبُـك دارسٌ عـافـي الـخـراب وجـسـمـك الـمـعـمـورُ
أرضـيـت أن يـحـظـى سـواك بـقُـربـه أبـداً وأنـت مُـبَـعَّـدٌ مـهـجـورُ
مـهِّـد لـنـفـسـك حُـجَّـةً تـنـجـو بـهـا يـوم الـمَـعـاد لـعـلَّـك الـمَـغْـذُورُ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار، فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[2]، فرحم الله الواعظ والمتعظ، وَوفق من أراد الاقتداء بهم.

8 ـ ما قيل من الشعر في عدله:

قال ابن منير:

بـنـور الـديـن رؤض كـلُّ مَـخـلٍ مـن الـدنـيـا وجُـدِّد كُـلُّ بـالِ
وَصَـوَّب عَـذْلُـه فـي كُـلِّ أوب فـعـوض عـاطِـلاً مـنـه بـحـال
وُيـنـكـي رأيـهُ رأي الـمـحـامـي ويَـقْـتُـلُ خـوفـه قـبـل الـقـتـال
لـقـد أحـصـدتَ لـلإسـلام عِـزاً يـفـوت سَـنـامـه يَـدَ كُـلِّ قـال[3]

وقال أيضاً:

رددت عـلـى الإسـلام عـصـر شـبـابـه ثـبـاتـه مـن دونـه وثـبـاتُـهُ

(1) أخبار الروضتين (1/ 56).
(2) البداية والنهاية (16/ 489).
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن شعر الجهاد الشامي، ص: 167.

أرسى قواعده ومَدَّ عِمادَهُ صُعُداً وشيَّد سوره سوراتُهُ
وأعاد وجه الحقّ أبيض ناصعاً إصلاتُهُ وصِلاتُهُ وصَلاتُهُ[1]

وقال أيضاً:

لا تأمنوا في الله بطشة ثائرٍ لله ملءُ سريره أسرارُ
صافٍ إذا كُدِرَ المعادِنُ عادِلٌ إن خاف حُكّام المملوك وجاروا[2]

وقال أيضاً:

أوَ لَسْتَ مَنْ ملأ البسيطة عَدْلُهُ واجْتبّ بالمعروف أنف المُنكَرِ
حدبُ الأب البَرّ الكبير، ورأفة الأم الحفية باليتيم الأصغرِ
يا هضبة الإسلام من يُعصم بها يأمَنْ، وَمَنْ يَتَولَّ عنها يَكْفُرِ[3]

وقال أيضاً:

لا مُلْكَ إلا مُلْكُ محمود الذي اتَّخذَ الكتاب مظاهراً ووزيرا
تمشي وراء حدودِه أحكامُهُ تأتَمُّهُنَّ فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عَدْلَهُ في دولة جاءت لِمَطْويّ السماح نشورا[4]

وقال أيضاً:

يا سائلي عن نهج سيرته هل غير مفرّق هامة الفجر
عدل حقيق من تأمّلُه أن يحيي العمرين بالذكر[5]

وقال أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافٌ ومال بها عن الأموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا فأهدر ما أنشاه بعد

(1) شعر الجهاد الشامي، ص: 168.
(2) المصدر نفسه، ص: 170.
(3) المصدر نفسه، ص: 170.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.
(5) عيون الروضتين (1/ 386 ، 387).

ومـد لـهـا رواق الـعـدل شـرعـاً وقـد طُـوى الـرواق ومـن يـمـد[1]

وبـات وعـنـد بـاب الـعـرش مـنـهـا لـدولـتـه دعـاء لا يـرد[2]

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يـا مـحـيـي الـعـدل الـذي فـي ظـلـه مـن عـدلـه رعـت الأسـود مـع الـمـهَـا

مـحـمـودٌ الـمـحـمـودُ مِـن أيـامـه لـبـهـائِـهـا ضـحـك الـزمـان وقـهـقـهـا[3]

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف، فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى؛ لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي، والأمن الغذائي والأمن الصحي[4]، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25] فهذه الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل، وتكفل استمراره، ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا: إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيديولوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالأيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشرذم، وتمنحها الأهداف، ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة، والفكر، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم، فالأيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمها القرآن الكريم، يهدف إلى تثبيت موازين العدالة، وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل، ويحيون بالأمل، ويسعون بالأمن، وينتفعون بالعمل والإنتاج[5].

---

(1) عيون الروضتين (1/ 388).

(2) المصدر نفسه (1/ 388).

(3) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 174.

(4) الإسلام والوعي الحضاري، د. أكرم العمري، ص: 115.

(5) الإسلام والوعي الحضاري، ص: 117.

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة، والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية، وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين[1].

رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة، وأنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبدّل كما كان يحدث دائماً، وما يقتضيه «الموقف» هذا ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي، وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً، لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط، تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها[2].

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه «تصميم» هادف يسعى إلى عملية «التأصيل العقائدي» من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيّز التاريخ «الإنسان» المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله[3]، وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيين، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً، وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[4]، فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة

---

(1) الإسلام والوعي الحضاري، ص: 117.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 139.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 130.
(4) المصدر نفسه، ص: 131.

من سلف منهم[1]، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم[2]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً[3]، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[4]، وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز، فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون ـ كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء[5]، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث[6]، كما ألف كتاباً في الجهاد[7]، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين[8]، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين أثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته[9].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوي وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز: دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

1 ـ تقديمه للعلماء على الأمراء:

كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده، فكان إذا أعطى

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 35.

(2) مفرج الكروب (1/ 283)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 35.

(3) الباهر، ص: 171، 172، نور الدين محمود، ص: 36.

(4) الباهر، ص: 171، 173، نور الدين محمود، ص: 36.

(5) الباهر، ص: 165.

(6) الكواكب، ص: 56، 57، الباهر، ص: 165، 166

(7) مرآة الزمان (8/ 313)، نور الدين محمود، ص: 36.

(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 36.

(9) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 39.

أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا[1]. وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه، ويقول لهم: من المعصوم؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري[2] عنده، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فقال نور الدين له: يا هذا إن كان ما تقوله صحيح فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينّك، فكف عنه[3].

2 ـ البذل والعطاء للعلماء:

لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا ـ على أهميته ـ إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مُقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب، وألاّ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها، أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[4].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة، عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا[5]، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 122.

(2) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 123.

(3) الباهر، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 134.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 140.

(5) الباهر، ص: 173 البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 141.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكّن العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية[1]، وهذا المنهج من هَدْي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي يتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار، أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[2]، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل، حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها، ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم، بينما تهمل الجوانب الأخرى، ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله تعالى كما يجوز أخذ مال الزكاة، أو الصدقة، أو الوقف، أو الوصية، أو الهبة، أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: 26].

3 ـ اهتمامه بعلماء المدارس النظامية:

من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ، وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير، وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهرة، والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية، وهو مؤهلٌ بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه، وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة،

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 141.

(2) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 265.

(3) أولويات الحركة الإسلامية، ص: 193، فقه النصر والتمكين، ص: 272.

والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت563هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق[1]، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يُمكّن لمذهب أهل السنة[2].

4 ـ هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود:

شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً علمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[3] حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة: خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية[4]، فالدولة التي تهيىء الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشىء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين ـ هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها، وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم[5]، وقد استقدم ـ على سبيل المثال:

أ ـ برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي سنة (548هـ/ 1153م) وهو من علماء الأحناف، فقد استُقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلّاوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام (519هـ)، وجلس للوعظ، وكان يتميز بصدق كلماته، فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها[6]،

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 222.

(2) المصدر نفسه، ص: 223.

(3) الباهر، ص: 171، 172، نور الدين محمود زنكي، ص: 144.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود زنكي، ص: 144.

(5) زبدة الحلب (2/ 293، 294)، مفرج الكروب (1/ 283).

(6) المصدر نفسه.

وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب[1].

ب ـ الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر تَوَلّيه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي ـ من دمشق أيضاً ـ ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسيّر إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً، ولم يزل الأخير مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما يلبث أن يتوفى عام (548هـ). وحل محله في التدريس عبد الرحمٰن بن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة (564هـ)[2]، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[3].

ج ـ عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي: تعاقب على المدرسة الحلّاوية مدرّسون من جهات شتى، وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكنة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة، وعُيّن في المدرسة الحلّاوية حتى وفاته عام (581هـ أو 582هـ) بينما أَقرَّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية، وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام (587هـ) أي بعد ثمانية عشر عاماً، وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها[4]، تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي، وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوّجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[5]. وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة، وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطإ فيرجع إلى قولها، وكانت تمارس الإفتاء، وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها، وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاّوية في حلب[6].

---

(1) مرآة الزمان (8/ 219، 220) نور الدين محمود، ص: 145.

(2) نور الدين محمود، ص: 145.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) نورالدين، ص: 146.

(5) تاريخ حلب (4/ 305، 308) نور الدين محمود، ص: 146.

(6) نور الدين محمود، ص: 146.

د ـ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون: وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام 550هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار ـ غربي الموصل ـ الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان ـ بحق ـ من أعيان فقهاء عصره، وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى، فبنى له مدارس عدة في منبج وحماه وحمص وبعلبك ودمشق، وفوّضه أن يولي التدريس فيها من يشاء، ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة (570هـ)[1].

هـ ـ قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام (544هـ) تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه[2]، وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ، وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام 540هـ فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك اسْتُدعيَ إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير[3]. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده[4]، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة 568هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي، واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها[5]، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين 578هـ[6].

و ـ سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري: المتوفى سنة (560هـ) والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً، وحدّث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس، فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته، ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به

---

(1) زبدة الحلب (2/ 293، 294) نور الدين محمود، ص: 147.

(2) المصدر نفسه، ص: 147.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

(4) البرق، ص: 134، 135، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

(5) مرآة الزمان (8/ 294).

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم ابن عساكر[1]، ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[2].

ز ـ الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام 562هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية، حيث ولي المدرسة النورية التي سميت ـ بعدئذ ـ بالمدرسة العمادية نسبة إليه، وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر، والتي تمّ إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[3].

ح ـ الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي: ملك النحاة ـ كما يسميه سبط بن الجوزي ـ ولد ببغداد سنة 489هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ، وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين، وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات، وكان يكتب إليه[4].

ط ـ أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه: كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه «الروضتين»[5].

ي ـ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ. . . ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد، وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه[6].

---

(1) الدارس في تاريخ المدارس (2/ 153).
(2) المنتظم (10/ 249)، نور الدين محمود، ص: 148.
(3) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 408، 411).
(4) مرآة الزمان (8/ 295 ـ 297).
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 149.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 150.

ك ـ شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمويه: وفد إلى الشام عام 563هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ، فأقبل عليه نور الدين ورغّبه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[1]، وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين، والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك، حتى صارت بلاد الشام في عصره مَهْجراً لكبار عقول الأمة.

5 ـ ابتعاد نور الدين عن التعصب:

لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى ـ من خلال نشاطه المدرسي هذا ـ إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتّيبّس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة، وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مُبدع واجتهاد خلّاق؛ إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض، ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه، وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم، ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدى، وثمة حادثة ـ من بين عديد من الحوادث ـ تناقلها المؤرخون، تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[2]: في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهباً من المذاهب، ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين، فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه مجد الدين ابن الداية وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء

(1) البرق، ص: 135، نور الدين محمود، ص: 150. (2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 165.

الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[1]، لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة، واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية والخارجية، وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه، إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم، والسُّنةَ المطهرة: التعصُّب الذي يؤدي إلى مهاوي الردى ويقود صاحبه إلى مسالك الغواية والضلال ويصدّ عن اتباع النور والهدى، فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[2].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[3] وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب، وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة، وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها، التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

6 ـ أثر العلماء في دولة نور الدين:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ ـ الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم، حيث كانت لهم الكلمة النافذة، والمكانة المرموقة، والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد[4]، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين: الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م)، ومن أعماله التي قام بها لينضمّ إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث

(1) تاريخ حلب (2/ 68)، نور الدين محمود، ص: 165. ص: 259.

(2) في ظلال القرآن (2/ 991) فقه النصر والتمكين، (3) فقه النصر والتمكين، ص: 260.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 183.

في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد، دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله[1]، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق (562هـ/ 1166م) في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[2].

ب ـ **السفارات بين الدولة**: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية، والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)، إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله سنة (530 ـ555هـ/ 1135 ـ 1160م) والسلطان السلجوقي مسعود سنة (527 ـ 547هـ/ 1133 ـ1152م) عام (532هـ/ 1137م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام[3]، وقد مرّ تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود، إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيء سنة (566 ـ 575هـ/ 1172م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه[4]، كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين سنة (534 ـ 549هـ/ 1139 ـ 1154م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة (546هـ/ 1151م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة (548هـ/ 1153م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[5].

---

(1) معجم البلدان (13/ 78).

(2) معجم البلدان (19/ 14)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 184.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 185.

(4) المصدر نفسه، ص: 185.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 186.

ج ـ تولي بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك، وكتابة الإنشاء[1] وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل كان حافلاً بالحركة العلمية، مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها[2]: ويعود ذلك إلى ذكاء لمَّاح ونية حسنة، وعلم غزير، مما مَكَّنه من حل مشكلات عصره، بينما عجز عنها قبله فُحُولٌ وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[3]، وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى في مبحث قادم عن دور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي، والمدرسون والطلاب ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي، وميادين العلوم وأبرز أعلامها وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها، وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38] كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159]

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 187، 189.

(2) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص: 313.

(3) المصدر نفسه، ص: 313.

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الحوافي قوة للقوادم[1]

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء، فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها، ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه[2]، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض، والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع، ولقد اعتمدها نور الدين محمود، ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية.

1 ـ الشورى في القضايا العامة:

وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن إحدى المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك، كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق[3]، ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء[4]، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلّا ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، ولا يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلّا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلّا وينكره، والساكت منكم مصدِّق للناطق ومصوِّب له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم

(1) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (1/ 454).

(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 422).

(3) المصدر نفسه، ص: 454.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

وأموالهم، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين[1]، فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به[2].

2 ـ مجالس متخصصة:

كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[3]، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت، وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول، وترفاً فكرياً. . إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة، وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم. . . ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما، أو استعداد تشريع، أو إقرار قانون، ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مرّ ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة[4]، وقد شبّه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ: مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا[5]. . . وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 81).
(2) المصدر نفسه، ص: 82.
(3) الباهر، ص: 171، 173 ، نور الدين محمود، ص: 133.
(4) نور الدين محمود، ص: 133.
(5) الباهر، ص: 173، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 133.

لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره البتة[1]. فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل؛ لأن نور الدين ـ وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته ـ ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلّا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرّعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً، مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء[2]، وكان يكاتب العلماء للاستشارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً[3]، وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[4].

3 ـ فراسته في معرفة العلماء:

لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء، وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، إن الرجل يرفض الكذب، الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة، وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع، وهو من الجهة الأخرى يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه: «لست بالخبّ[5]، ولا الخبّ يخدعني»، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن «يعبر» على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثّر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميّة الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال ـ يقول العماد: فوض إليّ

---

(1) الباهر، ص: 164.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 134.
(3) المنتظم (10/ 249).
(4) عيون الروضتين (1/ 374).
(5) الخب: الخادع.

نور الدين إحدى مدارسه وعوّل عليّ في التدريس والنظر في أوقافها، وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة (562هـ) خلّف ولدين واستمرا فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء[1]، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه، فغاظ نور الدين هذا المعنى، وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع، فقال لي: تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً[2].

والمقصود من كلامي: أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته، وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى، ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي[3]، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد، وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بصورة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله، لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة[4].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية، وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب، ولكل

---

(1) يوم كانت الكيمياء دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.

(2) البرق، ص: 119، 120.

(3) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 464.

(4) المصدر نفسه، ص: 465.

جانب أُناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمِرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنيبهم عنها في الرأي، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها، مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد[1]، ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة يستشار المهندسون، وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة، وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة، وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[2]. لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان وسنرى ذلك في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

المبحث الرابع
النظام الإداري عند نور الدين

إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية، تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية، على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم، حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم، فإذا تحقَّق من ذلك وثق بهم وخولهم الصلاحيات التي يحتاجونها لتنفيذ أعمالهم، فيباشرون وظائفهم وهم يرون فيه قدوتهم في الالتزام بالشرع والإخلاص بالعمل، والإحساس بالمسؤولية، والعدل والبساطة في العيش، والحرص على الأموال العامة، فتتحقق الإدارة الناجحة، وينعكس ذلك على الشعب بالرخاء والأمن الازدهار ويصدق فيه قول المؤرخ «ستيفن رنسيمان» في هذا المجال عندما وصفه بقوله: التزم البساطة في حياته، وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وآثر أن ينفق

(1) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص: 57. (2) المصدر نفسه، ص: 58 ، 59.

موارده على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقظاً ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه له سيفه من مملكة[1].

أولاً: حسن اختياره للرجال:

اعتمد نور الدين نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول، لكن نور الدين أكّد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة ذلك هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه، قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسييرها، ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملأ إدارته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال الذين كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم ـ في الأغلب ـ يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما[2].

1 ـ أسد الدين شيركوه وبنو أيوب:

عندما قتل عماد الدين زنكي عام 541هـ ـ 1146م والد نور الدين محمود، وجد نور الدين في بعض رجالات والده المتقدمين في ميادين الإدارة المدنية والعسكرية ساعده الأيمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب، وتثبيت أركان إمارته الفتية هناك، اتصل به أسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له: أعلم أن الوزير جمال الدين الأصفهاني ـ أكبر وزراء زنكي ـ قد أخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم أخيك سيف الدين غازي وتمليكه الموصل وقد انضوى إليه جل العسكر وقد أنفذ إليّ يغريني على اللحاق به، فلم أستجب لطلبه، وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن من ملك الشام ملك حلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فما كان من نور الدين إلا أن أصدر أمره بأن ينادي ليلاً في عساكر الشام للاجتماع، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الأول واعتمد أسد الدين شيركوه الذي أصبح أشبه بوزيره الأول[3]، ومع الوقت استمرت علاقة أسد الدين مع نور الدين في القوة والانسجام وأخذت تزداد مع الأيام حتى بلغت قمتها في ترشيح

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 170 تاريخ الحروب الصليبية (4/ 614).

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 54.

(3) المصدر نفسه، ص: 54.

أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاثة، كما اعتمد نور الدين على أسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة. وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق (عام 549هـ ـ 1154م) بمعونة الأخوين. نجم الدين، وأسد الدين حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً، وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما: الناصر صلاح الدين، وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة. وقد قال أبو شامة: كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق، فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها[1]، وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة[2] ويواصل أبو شامة حديثه فقال: وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه قطاعاً وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح الدين[3]. وكان صلاح الدين قد فارق أباه نجم الدين مُنذ عام (546هـ ـ 1151م)، وانتقل إلى خدمة عمه أسد الدين في حلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً[4]. واستخص صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[5] ويذكر ابن الأثير كيف أن كلاً من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق في أعلى المنازل. لا سيما نجم الدين فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك كما يحدثنا كيف أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين مُنذ أيام والده زنكي.. وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ويقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره[6].

2 ـ مجد الدين ابن الداية وإخوته:

لم يشأ نور الدين أن يجعل جل اعتماده على العناصر الإدارية المخضرمة، ورأى أن يطعمها بعناصر جديدة أكثر ملائمة وفهماً لأهدافه، أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الإدارية وترشيح العناصر الأكثر تقبلاً للوضع الجديد وتجانساً معه[7]، وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر ابن الداية، شقيق نور الدين من الرضاعة وإخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر الذي لم يبرز في ميدان الإدارة كما

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 58.
(2) المصدر نفسه، ص: 58.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 58.
(4) المصدر نفسه، ص: 59.
(5) المصدر نفسه، ص: 59.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 55.
(7) المصدر نفسه، ص: 56.

برز إخوته لربما لصغر سنه، ويتحدث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين وإخوته في إمارة نور الدين فيقول: كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده، ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه. وكان يسكن قلعة حلب. وقد سلمت قلعة جعبر وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان، وحارم لأخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه[1]، وعندما هدمت الزلازل شيزر عام (552هـ ـ 1157م) واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلمها إلى مجد الدين[2]. ويؤكد سبط ابن الجوزي أن مجد الدين وإخوته: كانوا أعز الناس على نور الدين وكان قد أسكنهم معه في قلعة حلب لا يصدر إلا عن رأيهم[3]. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت إليه وأنه كان عند حسن الظن، وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية. وعندما توفي عام (565هـ ـ 1169م) نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد، حزن نور الدين حزناً عميقاً، وقال وهو يبكي: لقد قصت جناحاي. وسرعان ما عمد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي الذي غدا بمرور الوقت أكبر الأمراء النورية في حلب، وأما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره وفي عام (569هـ ـ 1173م) السنة التي توفي فيها نور الدين ـ كان بنو الداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح أمرهم إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده[4]. وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش والديوان، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدر الدين حسن، وكان بيد هؤلاء الأخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب[5]، وكان هناك أسماء أخرى بارزة طيلة العهد النوري لم تكن لتقل عن بني الداية شهرة وإنجازاً[6].

3 ـ العماد الأصفهاني:

غادر بغداد ميمماً شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة (562هـ ـ 1166م)، وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 56.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 56.
(3) مرآة الزمان (8/ 324، 325).
(4) الباهر، ص: 163، نور الدين محمود، ص: 57.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 57.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 57.

توثقت العلاقة بينه وبين بني أيوب: نجم الدين، وأسد الدين وصلاح الدين، ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّه بشأنه، فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً في مطلع عام (563هـ، 1167م)، وصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر، ومديح الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين وكان يتلقى من بني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها، وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب ـ كما يذكر هو نفسه ـ بعد استعفاء أبي اليسر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الإنشاء واعتكافه في بيته، وهو يذكر أيضاً أنه وجد من نور الدين منُذ ذلك الوقت «الإعزاز والتمكين على الأيام» وقد اعتمده نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات إلى شاه إرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة (564هـ/ 1168م) وإلى الخليفة العباسي في أوائل سنة (566هـ/ 1170م)، كما فوضه الإشراف على المدرسة النورية في دمشق ـ والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية نسبة إليه ـ في رجب سنة (567هـ/ 1171م) وفي العام التي أصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء والإشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين، فكان المشرف هو المفتش العام للحكومة[1]، فَجَمَعْتُ ـ يقول العماد ـ بين المنصبين وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير وتارة للإثبات في الدساتير[2]، ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي[3]، وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته، إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك، المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والمالي[4]، ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الإداري فيقول: . . وقد مال إليّ نور الدين وعول في مناصبه علي وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي، فما أتحف بتحفة، ولا أخص من أحد بعطية إلا أطالعه به وأطلعه على سببه، فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول: تصرف فيه تصرفك في مالك[5]، ويمضي العماد إلى القول: ثم اعتمد علي اعتماداً كلياً وجعلني له نجباً، وإذا أراد أن يكتب إلى أحد منهم يقول: اكتب إليه من عندك ومن جملة ذلك، أن سعد الدين كمشتكين ـ نائبه في الموصل أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها، فجاء الرجل ـ وتظلم، فأمرني نور الدين بأن أكتب إليه بردها عليه. فقال

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 60.

(2) الدستور: هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم.

(3) البرق، ص: 120، 122، نورالدين محمود، ص: 60.

(4) البرق المقدمة، ص: 10، 11، نور الدين محمود، ص: 60.

(5) البرق، ص: 61، نور الدين محمود، ص: 61.

كمشتكين إنك كاتبي وأميني وصاحبي ولا تكتب إلا بأمري؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه !! فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته[1]، ومما لا شك فيه أن العماد الأصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الإدارية الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً في مدى فترة لم تتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها: الكتابة والإشراف (الإداري) والاستيفاء (المالي). وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه ـ وهو الأرجح، لما سبق وأن ذكرناه ـ فإن نور الدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك. ورغم ذلك فإن العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يُطلع سيده عليها.. وقد عمَّق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين[2]، وتلي هذه الأسماء في ميدان الإدارة أي بنو الداية، وبنو أيوب والعماد الأصفهاني، أسماء أخرى أقل منها أهمية، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا الشيء الكثير[3].

4 ـ خالد بن محمد القيسراني:

مستوفى المملكة حتى عام (568هـ/ 1172م) والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين في مقام الوزير، وله انبِساط زائد[4]، ويذكر في الخريدة أنه لما وصل الشام وجد القيسراني في صدر مناصبها وبدر مراتبها، وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه ولقد كان حقيقاً بذلك[5]. ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول: كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الإنشاء وإمرة مجلسه وهو المشير والوزير والأمور كلها عائدة إليه[6]، وواضح أن عمله في كتابة الإنشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني[7].

5 ـ محمد العمادي:

صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر[8]. وكان كما يصفه سبط ابن الجوزي: عزيزاً عند نور الدين ومن أعظم أمرائه[9].

---

(1) البرق، ص: 132، 133، نور الدين محمود، ص: 61.
(2) نور الدين محمود، ص: 61.
(3) المصدر نفسه، ص: 61.
(4) البرق، ص: 116، نور الدين محمود، ص: 62.
(5) نور الدين محمود، ص: 62.
(6) مفرج الكروب (1/ 270)، نور الدين محمود، ص: 62.
(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 62.
(8) مرآة الزمان (8/ 280)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 62.
(9) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 360).

6 ـ الشيخ الأمير مخلص الدين

أبو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين، كان كاتباً بليغاً حسن البلاغة نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البديع، وحسن الخط المحَرَّر على الأصول القديمة المستطرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء[1].

7 ـ أبو سالم بن همام الحلبي:

ولي الإشراف على الديوان بدمشق حتى عام (551هـ/ 1156م) حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس، وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح: هذا جزاء كل خائن. وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق على أقبح صفة، من لعن الناس، ونشر مخازيه[2].

ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين:

كانت دولة نور الدين مقسمة إلى عدة أقاليم، هي: إقليم حلب شمال بلاد الشام وإقليم دمشق وسط بلاد الشام، وإقليم الموصل منطقة الموصل والجزيرة الفراتية، وإقليم مصر، وإقليم اليمن، وإقليم الحجاز[3]، وكان لكل إقليم إدارته المحلية التي تتألف من عدة موظفين يعينهم نور الدين، وكانت جميع هذه الأقاليم تتبع السلطة المركزية للدولة في دمشق، التي يشرف عليها نور الدين وجهازه الإداري المركزي. أما الوظائف التي تتألف منها الإدارة المركزية.

1 ـ النائب:

هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، من صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم، والإشراف على تنفيذ قوانين ضمن منطقة مسؤوليته، وترؤس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم وقيادة الفرق العسكرية، الموجودة في الإقليم، كان مجد الدين ابن الداية من أشهر نواب نور الدين، فقد ظل خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب[4].

---

(1) نور الدين محمود، ص: 63.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 170.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 171.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.

2 ـ الوزير:

هو رئيس الجهاز الإداري المركزي ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة[1]، ويقدم النصح والرأي في الأمور السياسية والإدارية والعسكرية، كانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب[2]، فقد كان الوزير في بداية عصر السلاجقة هو المدبر الوحيد والحقيقي لجمع شؤون الدولة، ولكن صلاحياته تقلّصت بعد استحداث وظيفة النائب الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته ويرتبط بالسلطان مباشرة، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) الذي كان يعتبر مسؤولاً عن الدواوين، وكان عمل الوزير يقتصر في بعض الأحيان على تقديم المشورة في الأمور الهامة بسبب التداخل المذكور[3]، لم يكن هناك وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، فكان الأمر في الحقيقة يعتمد على كفاءة من يتولى المنصب وشخصيته، كما حدث مع كمال الدين الشهرزوري، فقد كان قاضي القضاة في كل مملكة نور الدين وكان يكلفه بكثير من المهام الأخرى غير القضاء، ويستشيره في الأمور الهامة[4]، حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه أصبح في دمشق الحاكم المطلق، وأنه ارتقى إلى درجة الوزارة، فكان له الحل والعقد في أمور الشام[5]، ومثال ذلك أيضاً ثقة نور الدين في العماد الأصفهاني كما مرّ معنا.

3 ـ المستوفي:

هو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها وحفظها، وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، ويكون له نواب في الأقاليم يقومون بالواجبات نفسها ويعملون بإمرته، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمى: ديوان الاستيفاء[6] ووظيفة المستوفي من أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير، ويتبع المستوفي موظف آخر هو المشرف الذي يرأس ديوان الإشراف ويعتبر عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة، ويشبه عمله إلى حد ما عمل المفتش في هذه الأيام[7].

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 172.
(2) المصدر نفسه، ص: 172.
(3) المصدر نفسه، ص: 172.
(4) المصدر نفسه، ص: 172.
(5) نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ص: 82، 83.
(6) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(7) المصدر نفسه، ص: 174.

4 ـ الأمير الحاجب:

هو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات التي تحوي أسماءهم ووظائفهم ورواتبهم وإقطاعاتهم، ويقوم بحل مشاكلهم وتقديم صورة واضحة عن أحوالهم إلى السلطان أو النائب. كما يقوم بالإشراف على سلاح الجند وخيولهم ويساعده في ذلك عدد من الكتبة والموظفين يشكلون معه ديوان الجند الذي يتولى كما ذكرت كل ما يتعلق بشؤون الجند من خيل وسلاح ورواتب وإقطاعات وسجلات[1]، كان محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوّابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر[2]. أما الحاجب فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان والدخول عليه في مجلسه، ومع أن بعض المراجع تذكر أن وظيفة الحاجب اختلفت عما كان عليه قبل عصر السلاجقة وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم أمامه وإطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى، فالحاجب إذن يشبه وزير الداخلية حالياً[3]، إلا أنه ورد في مراجع أخرى كثيرة أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب والبواب عندما يجلس في دار العدل للقضاء ليسهل دخول الضعفاء من الناس عليه[4]، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلت حتى في عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابلته[5].

5 ـ الوالي:

تغيَّر مفهوم وظيفة الوالي عما كان قبل دولة السلاجقة، فقد كان الوالي يمثل الخليفة أو السلطان في ولايته ويعتبر مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والعسكرية فيها، أما في عهد السلاجقة والدولة الزنكية، فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الولاية أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان، أي أن النائب في عهد السلاجقة وعهد الدولة الزنكية حلَّ محل الوالي في مركزه وصلاحياته[6]. أما واجبات الوالي في المدينة فهي واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام، ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، وتفقد أبواب المدينة وأسوارها وإطلاع النائب

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(2) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 174.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 174.
(4) الباهر، ص: 168، عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 175.
(6) عماد الدين زنكي، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 175.

أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة[1]، بينما تختلف واجبات والي القلعة فهو يعتبر قائد الحامية، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة وصيانتها وإدارة حاميتها، فهو قائد عسكري وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها[2].

6 ـ الشحنة:

الشحنة أو الشحنكية كلمة تركية تعني: قائد الحامية، أو الحاكم الإداري للمدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها؛ يُعَيَّن من قِبل السلطان، ويعمل بإمرته رجال الشرطة أو الحامية، ويقوم بملاحقة اللصوص والخارجين عن القانون، ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي والشحنة في المدينة، ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور ويظهر أن واجبات كل وظيفة كانت تتحدَّد في ضوء قوة شخصية من يشغلها، فإذا كانت شخصيّته قوية زادت صلاحياته واتسعت لتشمل واجبات لوظائف أخرى، كما حصل مع كمال الدين الشهرزوري الذي كان قاضياً في دمشق ثم صار قاضياً للقضاة في مملكة نور الدين كلها، وكان نور الدين يكلفه بأعمال كثيرة غير القضاء حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان في مقام الوزير، وتشير بعض المراجع إلى تعيين السلطان السلجوقي محمود الأمير آق سنقر البرسقي شحنة في بغداد عام (516هـ/ 1122م)، وكذلك تشير المراجع نفسها إلى تعيين السلطان نفسه لعماد الدين زنكي شحنة في بغداد عام (520هـ/ 1126م) والمعروف أن آق سنقر البرسقي كان يقود الجيوش وهو في الوظيفة المذكورة، ويدافع عن بغداد ويتصرف كنائب للسلطان، وكذلك كان من بعده عماد الدين زنكي في هذه الوظيفة[3]، وتشير المراجع ذاتها إلى تعيين نور الدين محمود توران شاه ابن نجم الدين أيوب شحنة في دمشق ومن بعده أخو صلاح الدين يوسف في الوظيفة نفسها، وكانت واجبات الأخوين في هذه الوظيفة لا تتعدى الأمور الإدارية[4]، مما يعني أن مفهوم وظيفة الشحنة كان يتغير من ظرف إلى آخر ومن مكان إلى مكان[5].

7 ـ القاضي:

حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفة أخرى ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل وإشاعته في دولته، فقد كان يختار لهذه الوظيفة أشهر

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 175.
(2) المصدر نفسه، ص: 175.
(3) المصدر نفسه، ص: 176.
(4) الكواكب الدرية، ص: 147، دور نور الدين، ص: 176.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 176.

العلماء والفقهاء المعروفين بالتقوى والاستقامة، ويعطيهم كامل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم وأحكامهم فكان القضاء يتمتع باستقلال تام[1]، وكان هو أول من أنشأ محكمة عليا سمّاها دار العدل ـ كما مرّ معنا ـ للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، عندما لاحظ تهيب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة، فكان يجلس فيها للقضاء ومعه الفقهاء والعلماء والقاضي ليستشيرهم فيما يعرض عليه من قضايا، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته عندما ذهب إلى مجلس القضاء وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة[2]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقادة وكبار موظفي الدولة على مخالفة الشريعة، أو ظلم أحد من الرعية؛ لأنه علم أن العقاب لا بد أن يقع عليه وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين الذي كان يجلُّه ويقدره فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها بحيث يكون القضاة في الأقاليم نوّاباً عنه، وكلّفه بأعمال مهمة غير القضاء كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وبناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستانها حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق وأنه: ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[3]، ومن القضاة الآخرين الذين اشتهروا في دولة نور الدين: شرف الدين أبي عصرون، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره[4].

ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكية بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية:

حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً وعّده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويكثر من الصلاة من الليل إلى وقت السحر إلى أن يركب. وكان محدثاً مع الحديث وأسمعه وجمعه، وكان حنفي المذهب عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو عن كونها مدارس في الفقه[5]، نور الدين ذو تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 176.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.
(3) دور نورالدين محمود في نهضة الأمة، ص: 176.
(4) المصدر نفسه، ص: 176.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 362.

محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة كالسفارة والوزارة وناظر الأوقاف، وناظر المالية والقضاء واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[1]. ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين. فقد أظهر هذا الرعيل من صفوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها مما هيأها لمجابهة التحدّيات في الداخل والخارج[2]. ومن أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي:

1 ـ تكامل القيادات الفكرية والسياسية:

فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال، أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المنزلة الأولى فيه[3]. وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء، وقد مرّ ذلك في قصة أحد الأمراء مع قطب الدين النيسابوري ودفاع نور الدين عنه.

2 ـ اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات:

فقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يُتفق عليه[4]، ما دام يحقق المصلحة العامة، وقد تحدثنا عن بعض الممارسات الشورية في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

3 ـ غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية:

في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران، فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين ـ مثلاً ـ ووزرائه وقادته لكنهم كانوا يعالجون هذه

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 164.
(2) الكواكب الدرية، ص: 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 264.
(3) الكواكب الدرية، ص: 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 264.
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 265.

المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن حدود المصلحة العامة وما تقتضيه وحدة الكلمة وتغليب الأخلاق الإسلامية[1].

4 ـ التفاني في أداء الواجب بتعاون وتآخٍ:

ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الزعيم من القادة والإداريين والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة: فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين وأسد الدين، ونجم الدين وزين الدين وهكذا[2]، وثمة ملاحظة أخرى وهي تَعَلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين[3].

5 ـ الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام:

تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة والإدارة والجيش من الثروات والسياسة الاقتصادية، فقد زهدوا بالمكاسب، وعزفوا عن الاحتكار والترف. وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى، فقد كان نور الدين زنكي مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعلى أسرته، . وكان لا يكنز ولا يستأثر الدنيا، ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في قلعة البلد الذي يحل فيه[4]، وكان نفقته في الشهر مئة وخمسين درهماً يأخذها، من دكاكين كانت له في مدينة حمص حيث اشتراها من حصته من الغنائم، ولقد شكت له زوجته يوماً قلة نفقاتها، وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة فقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن: إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم وأنا خازنها فلا أخونهم فيها ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم فقد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان نور الدين صاحب مهنة يخيط الكوافي، ويعمل سكاكر للأبواب، ويعطيها لبعض العجائز فتبيعها ولا يدري به أحد[5]. ومع ذلك فقد شهدت دولته تقدماً اقتصادياً يأتي بيانه بإذن الله. وقادة

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(2) نور الدين محمود، ص: 407، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(4) نور الدين محمود، ص: 369 د. حسين مؤنس.

(5) الكواكب الدرية، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 267.

الجيش، كان منهم أسد الدين شيركوه أكبر قادته العسكريين، فقد كان يملك أراض واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفكر الإسلامي، وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة[1]، وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي أوقف أوقافاً كثيرة منها: مدرسة الموصل ومدرسة نصيبين، ورباطاً في المدينة المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية «الهامة» على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي وكان كثير التبرع والهبات، ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها[2] وكذلك فعل عبد الله بن عصرون حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب، وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين حيث بنى خانقاه تُعرف بالنجمية[3]. وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال الحكم والإدارة، وحذت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت «الخاتونية» بمحلة حجر الذهب وخانقاه خاتون باب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى ومثلها زمرد خاتون بنت جاولي[4].

6 ـ توفر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة:

تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة، كحرية الرأي المنضبطة والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا، فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد[5]. وإلى جانب ذلك امتازت الأجواء العامة بحرية الرأي، فكان كل إنسان يقول رأيه دون خوف من التعرض للأذى أو الانتقاد حتى لو كان النقد موجهاً لنور الدين بالرغم من استعمال البعض لأساليب قاسية محرجة ولقد أورد المؤرخون الإسلاميون أمثلة عديدة لمواقف نور الدين التي تكشف عن أنه كان يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت حدته وينظر في كلام الناقدين فإذا رأى فيه ما ينفع سارع إلى الأخذ به وقد مرّ معنا كلام الواعظ أبي عثمان

(1) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 391.
(2) طبقات الشافعية (6/ 117، 119).
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 268.
(4) المصدر نفسه، ص: 269.
(5) التاريخ الباهر نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 270.

المنتخب بن أبي محمد الواسطي، وكيف تناول موضوع الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه فحذّره وخوّفه مما هو فيه، وأنشد أمامه أبيات من الشعر[1] مرّ ذكرها إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في الحركات الإسلامية والدول من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى، ولقد عرّف بعض الباحثين التخطيط بأنه: جسر الحاضر والمستقبل[2]. إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط؛ لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة. قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77]. إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة[3].

إن نور الدين محمود رجل عاش مع كتاب الله، وعرف من قصة يوسف وغيرها أهمية التخطيط والإدارة، ولذلك نجحت إدارته، فقد أدرك الملك العادل أن الإسلام لا يقوم على التخمين والتواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها، فقد عرف أن من ثمار حسن إدارة يوسف عليه السلام وتخطيطه أنه حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء. والتخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما: التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي: السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد البشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية[4]. إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي زاوله الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والجهادي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً كافياً. وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى. إن الاهتمام بالفكر الإسلامي وأصوله وقواعده وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة التي مارسها نور الدين محمود وساعدته على إنجاح مشروعه النهضوي الكبير.

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 273.
(2) فقة النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 277.
(3) المصدر نفسه، ص: 277.
(4) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص: 415، 416.

المبحث الخامس
النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية:

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع، فنور الدين محمود أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة، وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجما كانت تنصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤناً ورسوماً ومكوساً، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بمواردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس والضرائب، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها الخلل فتوقف ـ على الأقل ـ عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق، واستعادة التوازن والقدرة على العمل؟ إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال وبشكل دائم لما واصلت سياستها تلك حتى آخر لحظة، ولما وصفها العماد بأنها كانت: نافذة الأوامر منتظمة الأمور[1]. وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدر على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي وغيرها بسبب سياسة نور الدين الحكيمة وإليك شيء من التفصيل:

1 ـ نظام القطاع الحربي:

اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضد الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التي تصرف للجيش، إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية، بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش[2]، وقد انتقل نظام الإقطاع الحربي كاملاً إلى الدولة الزنكية التي نبتت وترعرعت في أحضان السلاجقة، ثم

---

(1) نور الدين محمود، ص: 119، 120 البرق، ص: 147. الدين وابنه، ص: 26، نقلاً عن جيش مصر، حسان سعداوي، ص: 1، 2.

(2) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن، عماد

ورثتهم بعد ذلك[1]. وقد ارتبط الإقطاع الحربي في عصر الزنكيين بالخدمة الحربية، إذ كان الأمير المقطع يلزم بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها، وكان إقطاعاً وراثياً، أي أن إقطاع الأمير أو الجندي يمنح بعد وفاته لأولاده[2]، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد، ومنح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضي الزراعية للمقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية التي كان المقطع ملزماً بها[3]، والملاحظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على الأمراء والأجناد في العهد الزنكي شمل كل البلاد التي تمكن عماد الدين، وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه عندما لجأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل، رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ثم خص أسد الدين بالمؤزر[4] وأقطع الأمير جاولى الرحبة وأعمالها[5] وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الاقطاعات الحربية، فعندما استولى على دمشق سنة (549هـ/ 1154م)، اقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بحمص عوضاً عن دمشق، كما أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلي سروج والملاحظة والباب وبزاغة[6] وأقطع في سنة (563هـ/ 1167م) مجد الدين أبا بكر ابن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر، ثم أقرها بعد وفاته سنة (565هـ/ 1169م) في يد أخيه علي ابن الداية، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص وحماة، وقلعة بعرين وسلمية، وتل خالد والرها[7]، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحاج بين الشام والحجاز، ولمثل هذا الهدف اقطع أمير مكة إقطاعاً وافراً[8]، وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر، هددهم بأخذ

(1) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه، ص: 26.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(4) مفرج الكروب (1/ 3، 6) النجوم الزاهرة (5/ 277).
(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(6) مفرج الكروب (1/ 3، 6) النجوم الزاهرة (5/ 277).
(7) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 28.
(8) مقومات حركة الجهاد، ص: 28.

إقطاعاتهم وإعادة الموارد التي أخذوها منها[1]، واتبع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود أساليب عدة لتوزيع الاقطاعات الحربية على أمرائهما وأجنادهما. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك أن عماد الدين عندما عزم في سنة (540هـ/ 1145م) الاستيلاء على قطعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، لما رأى حصانتها كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها، وفوض عماد الدين حسان المنبجي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوافر، والعطاء الكثير مقابل التسليم[2]، ومن ذلك أيضاً ما ذكر أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة (549هـ/ 1154م) وأدرك صاحبها مجير الدين آبق عدم جدوى المقاومة احتمى بقلعة دمشق ساعات، ثم استسلم فأطلق نور الدين سراحه وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص وأعمالها[3]. كما منح الاقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة، أو أبان مراحل جهادهم ضد الصليبيين، من ذلك ما ذكره ابن الأثير أن عماد الدين عندما ملك بعض ديار بكر سنة (538هـ/ 1143م): رتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها[4].

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مقطع إلى آخر عن طريق الوراثة أو غيرها، فتشير المصادر إلى أن عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق، وأسكنهم بحلب وأعمالها وأمرهم بجهاد الصليبيين، وأعطاهم كل ما استنقذوه منهم، ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمائة[5]، وقد سار نور الدين على نهج أبيه يدلنا على ذلك قول ابن واصل أن نور الدين كان من آرائه الحسنة ما يعتمده من أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكراً أقر عليه إقطاعه[6]، ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة (558هـ/ 1162) عندما هزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة: بالوقيعة، حيث أصدر نور الدين أوامره بإحضار الأموال والدواب والأسلحة والخيام من دمشق، وفرق ذلك على من سلم من عسكره ومن قتل أعطى اقطاعه لأولاده[7].

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 29.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 282 ، 285، الباهر، ص: 74، 75.

(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 30.

(4) الباهر، ص: 66 ، مقومات حركة الجهاد، ص: 30.

(5) الباهر، ص: 80 مقومات حركة الجهاد، ص: 31.

(6) مفرج الكروب، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 31.

(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 31.

وأما انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر من غير وراثة والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية، يدلنا على ذلك ما حدث سنة (562هـ/ 1117م) عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما يمكن أن يقدموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين والفاطميين في مصر، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع أمرأته، والله لئن عُدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكيه، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منُذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار[1]. ويظهر من خلال هذا العرض أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الاقطاع مجموعة من الالتزامات كان يؤديها للسلطان وهي في المرتبة الأولى التزامات حربية املتها ظروف الجهاد الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية - شملت تقديم العساكر وقت الحرب، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره، إذ كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال مزودين بكل مستلزماته من مؤنٍ وعتاد ودواب وغيرها، فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك[2]، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية اقطاعه من أي اعتداء خارجي، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم[3]، وصفوة القول فإن نظام الاقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الأمراء والجند واستماتتهم في أداء واجب الجهاد في سبيل الله وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام والتوسع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا، خاصة وأن الزنكيين كانوا حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم يخصون بها المخلصين منهم، يدلنا على هذا ما ذكرته[4]، بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم[5]. وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

2 - الزكاة والخراج والجزية:

تشكل الزكاة والخراج والجزية جزء مهم من موارد الدولة وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية، فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي لا يكمل إسلام المسلم وإيمانه إلا

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 32.

(2) مقومات حركة الجهاد، ص: 32..

(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 33.

(4) المصدر نفسه، ص: 34.

(5) الباهر، ص: 37.

بتأديتها، ولذلك يقبل المسلمون على تأديتها من باب الحرص على دينهم دونما إكراه من الدولة، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنعها من المسلمين بتأديتها؛ لأنها ركن من أركان الدين من حقوق المسلمين يجب على الدولة جمعها وتنظيم صرفها في مصالحهم وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[1] أن الزكاة تساهم إلى حد كبير في سد نفقات الدولة، إذا كانت الدولة تُطبق الإسلام على حقيقته وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذميّيها ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والإفلاس[2].

3 ـ الغنائم وفداء الأسرى:

كانت الغنائم تمثل بحق مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان؛ يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال: عاد نور الدين بعد فتح حارم (عام 559هـ) إلى حلب بالأسارى، ثم فادهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون يفادي بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفادة، وجميع ما وقفه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد[3] ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة: وقع صاحب طرابلس أسير بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين أسير من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي[4]. أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: مائة وخمسون ألف دينار، وفكاك ألف أسير من المسلمين[5]، ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأمير

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 190.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 121.
(3) مرآة الزمان (8/ 247، 248) نور الدين محمود، ص: 124.
(4) المنتظم (10/ 249) نور الدين محمود، ص: 124.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 124.

الصليبي كانت كبيرة حقاً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر واليمن وغيرها[1]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية، أدركنا كما كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي[2].

4 ـ الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين

والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين ـ لحسن الحظ ـ بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام 544هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير، وابن العديم «كثيرة جداً»[3]، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال، وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب[4].

5 ـ الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة:

تميز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص، وإن لنا أن نقدّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين وإن لنا أن نقدر ـ بالمقابل ـ ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم[5]، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز، وعنى بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم. والأغلب أن ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين[6]، وما قيل عن عمر ينسحب بالضرورة على نور الدين[7]، كما أن وجود الحكومة الرشيدة التي كان يقودها نور الدين ساهم على تحقيق ما أراد، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء والفقهاء المشهورين بالأمانة والاستقامة والكفاية، وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، فكان

---

(1) البرق، ص: 123، 124 نور الدين محمود، ص: 124.

(2) نور الدين محمود، ص: 124.

(3) زبدة الحلب (2/ 298) نور الدين محمود، ص: 124.

(4) الباهر، ص: 98 نور الدين محمود، ص: 125.

(5) نور الدين محمود، ص: 125.

(6) الدولة العربية وسقوطها، ص: 296 ترجمة عبد الهادي أبي ريدة.

(7) نور الدين محمود، ص: 125.

نور الدين يستشيرهم ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور الهامة[1]، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط[2]، وألزم نوّابه ورجال دولته بهذا الفهم الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة والإحساس بالمسؤولية، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة، وفي الولايات، ولم يتردد في محاسبة نوابه في الأقاليم إذا أحسّ منهم ميلاً للمحافظة في هذا المجال[3]، وأنزل عقوبة شديدة بأحد موظفيه بعد أن ثبت أنه استغل مركزه وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه[4]، قد مرّ ذكرها، ويكفي أن نتذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين الذي كان قد أرسله لبيت المال ليرده إلى أصحابه[5]. لنعلم كم كان الرجل صارماً، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة، فحفظت وانعدم التسرّب منها إلى حد كبير إلى جيوب الولاة والموظفين[6].

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعيته بسياسته التقشفية، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرّد من أهواء الدنيا ومغريات الملك، ومن مظاهر البذخ والترف التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان وقوة الحكم، بل كان كما قيل: «من شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما يحيُّره»[7]، فاقتدى به أهله وأمراؤه وقادته والتزموا البساطة في حياتهم، ثم انتقلت خصائله إلى العامة من الناس فكان لهذه السياسة أثرها البعيد في توفير الأموال التي كانت تهدر في مجالات اللهو والبذخ والترف، فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة[8].

6 ـ سيادة الأمن والاستقرار الداخلي:

كانت النزاعات والحروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات، وتقضي على الأجواء المناسبة لاستغلال الأرض ورواج التجارة فيما بينها، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة فلما توحّدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين زالت أسباب التوتر والنزاع وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية، وأصبحت

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 190.
(2) المصدر نفسه، ص: 190.
(3) المصدر نفسه، ص: 190.
(4) المصدر نفسه، ص: 190.
(5) المصدر نفسه، ص: 189.
(6) المصدر نفسه، ص: 189.
(7) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 189.
(8) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 189.

الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجة الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي لا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام كما كانوا من قبل، فانصرف الناس إلى أعمالهم الزراعية والتجارية وهم مطمئنون، فتحسنت الأحوال الاقتصادية وكثر العمل، وكان من نتيجة ذلك كله زيادة مقادير الزكاة التي تشكل المورد الرئيسي لخزينة الدولة[1].

7 ـ مساهمة الأثرياء:

أثرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمة في إيجاد مجتمع التكافل والتضامن في بلاد الشام، وصار التعاون والتراحم والمودة والمواساة سمات بارزة في المجتمع، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمة يسارعون إلى أعمال الخير تأسياً بسلطانهم وطلباً للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، فتمّ بناء الكثير من المدارس والمساجد ودور الأيتام من قبل القادة والأمراء والولاة وغيرهم من الأثرياء، حتى صارت هذه الأعمال من ظواهر المجتمع الدائمة، وامتدت بعد دولة نور الدين، واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وما يهمنا هنا أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة[2].

8 ـ المعاهدات والاتفاقات:

فقد شكلت المعاهدات والاتفاقات مورداً مالياً طيباً للدولة الزنكية ففي سنة (557هـ/ 1156م) سار نور الدين بقواته لمحاصرة حارم التابعة لإمارة أنطاكية، وجمع الصليبيون قواتهم لصده عنها، وكان في هذا الحصن رجل صليبي من دهاة الإفرنج، يرجعون إلى رأيه، نصحهم بمفاوضة نور الدين فوافق على ذلك مقابل أن يعطوه نصف أعمال حارم[3]، كما حدث سنة (559هـ/ 1163م) أن وافق نور الدين على إطلاق سراح بوهيمند سنة (1163 ـ 1201م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كبيرة، وتعهد أن يرسل مالاً كثيراً، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها، مالاً في كل[4] سنة.

9 ـ دعم الخليفة العباسي:

كان نور الدين يدين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية السنية في بغداد فتحصل على

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 191. ص: 35.

(2) المصدر نفسه، ص: 191. (4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة

(3) مفرج الكروب (1/ 128) مقومات حركة الجهاد، الجهاد، ص: 35.

إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته والحصول على التأييد منها في أعماله الجهادية حرصاً على ما يبدو في ذات الوقت على طلب المساعدة المالية منها أحياناً، لدفع حركة الجهاد ضد الصليبيين، يدلنا على ذلك ما ذكر أن نور الدين محمود لم يتحرج في أن يطلب من الخليفة العباسي المستنجد بالله النفقات والأسلحة، لسد الكلمة ودفع الملمة على أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة (565هـ/ 1169م)[1].

10 ـ سياسته الزراعية:

عهد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة، كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية، في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين والفلاحين من كافة صنوف الأذى، والتخريب، والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً. . وقد مر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينات كان يشدد على أصحابه وجنده ألّا يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألّا يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق. . كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، ونتذكر رواية ابن القلانسي: سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافاً أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والغربان بأن الفلاحين الذين أُخذت أموالهم، وشتت نساؤهم وأطفالهم بِيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم[2]. وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ومثلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكاناتهم المتميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الري سواء من الأنهار أو الأمطار، أو الينابيع، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن وقصب السكر، والسمسم، والزيتون وغيرها[3].

---

(1) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 35.

(2) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 122.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 42.

11 ـ المجال الصناعي:

فقد امتازت الدولة النورية بتوفر المواد اللازمة للتصنيع، وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير خاصة ثياب الدمسك[1] والموسلين، وكذلك صناعات الورق، والزجاج وغيرها. ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم معقدة، ولم توحد المعدات التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت والموصل ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب[2] والجراحة، وكذلك الأسلحة وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة، ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي[3]، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته وسبرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، كذلك عدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثروة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية[4].

12 ـ القطاع التجاري:

اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة، وخاصة بعد استرداد الرها جعلها تتحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق وآسيا الصغرى من ناحية، وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة (567هـ/ 1171م) مكّنه من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر ممرين مائيين هما: الخليج العربي والبحر الأحمر[5]. وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلية أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر، ويقوم

---

(1) الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 43.

(2) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ص: 159.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية، ص: 43.

(4) المصدر نفسه، ص: 43.

(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 37.

بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور[1]، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النّبي صلى الله عليه وسلم، وخليفته الأوّل أبي بكر الصديق ﷺ لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلاميَّة، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر ﷺ وامتدَّت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تمليها المصلحة العامَّة، ورأى الخليفة عمر ﷺ أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل[2]، وقد أجمع المؤرّخون[3] أن أوَّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب[4] ﷺ.

اهتمت الدولة الزنكية بالحركة التجارية وإقامة العدد من المؤسسات التجارية مثل الخانات[5]، والفنادق[6]، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق، كذلك شجعت التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد، وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل: دمشق وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان، والموصل وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم[7]. وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلآف وَوُصِفُوا بأن منهم «ذوو اليسار»[8]، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة[9].

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الإمبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل: جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي[10]، وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية والجزرية مثل: حلب، ودمشق، والموصل

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 271، اقتصاديات الحرب، ص: 223.
(2) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 327.
(3) سياسة المال في الإسلام، ص: 128.
(4) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 327.
(5) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (1/ 234).
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 44.
(7) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر، ص: 109 عبد القادر ريحاني.
(8) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 45.
(9) المصدر نفسه، ص: 45.
(10) المصدر نفسه، ص: 45.

وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية[1] ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص فهناك الخزانون ثم الركاضون، والمجهزون[2]، ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسر تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبي ت 632هـ/ 1234م الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن[3]، ، ووجدت في حلب بيوت قديمة معروفة بالثروة[4]، يتوارثونها وطبيعي أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل[5]، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام[6]، ، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة، حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق[7]، ويبدو أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تنشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام 567هـ فقال:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عوضت مصر فيها من النشب[8]،

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي غنمت أكثر واستفادت بعد الفتوحات ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري إذ اخضعت تجارة شمال الشمال ومرت بها الطرق

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 45.

(2) الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي، ص: 74 ، 75.

(3) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص: 217.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 46.

(5) تاريخ التجارة، ص: 191.

(6) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات، ص: 202.

(7) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 46.

(8) الخريدة، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 47.

التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليمَين المتجاورين بصفة عامة[1]، ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي ساهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد فقد تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل: عيذاب على البحر الأحمر، ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط، أدركنا كم كان على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة، ولا مراء في أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية[2]، وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في كافة المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية[3].

أ ـ مبدأ التخصص في التجارة الخارجية: شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب ـ قلب تجارة شمال الشام ـ صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسَّقة وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا والشمال الأفريقي، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاث محاور:

ـ **المحور الأول:** المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليس لها موانيء على الساحل الشامي، وحيث أن تلك الموانىء خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول والأسواق التجارية الدولية، التي استهلكت منتجاتها التجارية مثل الإمبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناء تجارياً لدمشق، وكذلك كان

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 238.
(2) المصدر نفسه، ص: 238.
(3) المصدر نفسه، ص: 239.

ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه وحمص، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل: مدن جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي[1].

ـ **المحور الثاني**: تجارة التوابل فقد نهض بأمرها الكارمية، فقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية، قد تأتي لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددها لوييز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة والعطور، والعقاقير، والصيانة الكيماوية، والطهو[2].

ـ **المحور الثالث**: تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقد مثلت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة[3] بطرابلس، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة، أما تجارة الرقيق فكانت لها أهمية خاصّة[4] وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى، وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام (567هـ/ 1171م) وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه[5].

ب ـ **التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس**: لم تقطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة ومن المرجح أن الإزدهار التجاري الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجع ـ في أحد أسبابه ـ إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذ اعتبر أحد الموانيء الرئيسية الهامة لتصريف تلك الدولة، وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكي تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل[6]، كما كان

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 240.
(2) المصدر نفسه، ص: 241.
(3) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، ص: 69.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 241.
(5) المصدر نفسه، ص: 244.
(6) مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق، ص: 124.

الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق، وقد شابه البيزنت البيزنطي وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام[1]، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب[2]، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت ـ شأنها في ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها ـ من المتاجرة مع الدولة النورية[3].

ج ـ مكانة التجار عند نور الدين زنكي: تجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة، ومما ساعد على التعاون بين التجار ودولة نور الدين أن مصالحهما ألتقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام (549هـ/ 1154م) وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مَثَّلَ دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة[4]، وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية[5].

13 ـ إلغاء الضرائب:

أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل: لن يستكمل أبعاده إلّا من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 247.
(2) المصدر نفسه، ص: 247.
(3) المصدر نفسه، ص: 248.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 328، 329.
(5) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 255.

الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين، وتقديم أوسع الخدمات لهم، وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته، وكان يحوط هذا التحرك ـ الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن ـ برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قديرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة[1]، كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسباً يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس[2]. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بعد ـ ولا شك ـ كانت تثير استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل، وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي، وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منُذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين ـ يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها[3]. وهذا يؤكد ما قال الدكتور عماد الدين خليل: بأن إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 94.
(2) نور الدين محمود ، حسين مؤنس، ص: 402.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 95.

وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء[1].

أ ـ في دمشق عام 549هـ: عندما دخل دمشق عام 549هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهار[2]، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها. وقرىء المنشور على المنبر فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس والفلاحين والحرم والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب ـ في عام 552هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين ألف دينار، وقد جاء فيه: هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعاية ـ رعاهم الله ـ لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار ـ أبادهم الله تعالى ـ إلخ، ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها[3].

ج ـ في الموصل عام 566هـ: عندما دخل الموصل عام (566هـ) لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك منشورات من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، وحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقدمنا بإسقاط كل مكسٍ وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً.. وهذا حق الله قضيناه، وواجب علينا أديناه[4].

د ـ في مصر عام 566هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام 566هـ، جميع

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 95.

(2) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 96، نقلاً عن كتاب الروضتين.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 98.

المكوس صادرها ووارداها جليلها وحقيرها[1]. ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينار: فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره[2]، ويؤكد ابن العديم أن عام 567هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس[3].

س ـ وفي عام 569هـ ـ السنة التي توفي فيها نور الدين ـ قام بحملة تطهير أخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه «فريضة الأتبان» في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني. وقد أطلع أبو شامة على نسخة المنشور، وعلامته بخط نور الدين «الحمد لله»، ومما جاء فيه: وبعد، فإن من سنتنا العادلة وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفُها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله[4] تعالى، ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية والخراج. . وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج[5] وقد مرّ الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دولة نور الدين محمود، إن نور الدين محمود في سياسته الاجتماعية والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة وأموال الأمة، التي هي حصيلة كدّها ودمعها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

و ـ حمايته للرعية من جشع التجار: كان رحمه الله حريصاً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم، ويوماً حضر إليه جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار) كان كل ستين منها بدينار فصار سبعة وستون دينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس، فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته، ورفض من ثم الاستجابة لمطالب التجار[6].

---

(1) الباهر، ص: 166، نورالدين محمود، ص: 98.
(2) نور الدين محمود، ص: 99.
(3) البرق، ص: 143، نور الدين محمود، ص: 102.
(4) المصدر نفسه.
(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 103.
(6) الكواكب، ص: 24، نور الدين محمود، ص: 105.

ز ـ الأموال التي خلفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام 552هـ بعد أن خربتها الزلازل ـ لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق، وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها، وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم شيئاً، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنقاض[1]، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه[2].

ح ـ خراج معرة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحمدي الفقيه: كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى أهلها فقال: رفع إليّ الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر، ثم استعادها المسلمون مما سَبَّبَ ضياع المستندات الخاصة بالملكية، فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستمدّ تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز !! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه قائلاً: أكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك[3].

ط ـ اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام (566هـ) وليكون مسجداً جامعاً للمصلّين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه، لا سيما وأنه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة، وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه، فكان عمر الملأ الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: إنما سُمي بذلك؛ لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوى بها، وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقي لنفسه شيئاً، وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، وكان نور الدين من أخصّ محبيه، ويستشيره

(1) زبدة الحلب (2/ 307)، نور الدين محمود، ص: 105. (3) الكواكب، ص: 71، نور الدين محمود، ص: 106.

(2) نور الدين محمود، ص: 105.

في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته[1]. هذا وقد أُنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة، واشترى عمر الملاء الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان، وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام (568هـ) تقدم إليه عمر الملأ بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل.. عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة فاستراح إلى النتيجة[2].

المحاسبة الدقيقة لعمال الزكاة:

وحكى معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين الشهيد قال: انكسر ضامن دار الزكاة المعروف: بابن شمام مال جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته[3].

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية الرشيدة، من نظام القطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة التي تميز بها وحكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاقات التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية، والصناعية والتجارية وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة التي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين الاهتمام بالجانب الاقتصادي؛ لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية والحكومات كذلك أن من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 106.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 106.

(3) مفرج الكروب (1/ 19)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 106.

إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية، وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامي على الأسواق العالمية وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلامي. من تحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي[1].

إن التاجر المسلم في المفهوم الإسلامي الأصيل من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع، يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في هذا الصدد: وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية[2]. وطلب في كتابه: (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردود دعوي، وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق، ونحن لا نجيد إلا سبهم، ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبِّهم وشتمهم. إلى أن قال: ولا بد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار[3].

إن نور الدين محمود اهتم بالقوة الاقتصادية وجعلها في خدمة الأمة والدعوة وسياسة الدولة وقادة الفكر، ودعّم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق: كالمارستانات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث، والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 288.
(2) صناعة الحياة، ص: 46.
(3) المصدر نفسه، ص: 46، 47.

(الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة[1]. كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف[2]، فزمانه كما يقول أبو شامة: مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم[3].

1 ـ المجال الصحي (المستشفيات):

اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام كما بينا في كتابنا: «الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار» فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين واهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتماماً بالغاً وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية وهي علاج المرضى ومتابعتهم[4].

أ ـ البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء[5]. وقال الغزيّ: هو لصيق البهرامِيّة من جنوبها الشرقي بناه نور الدين محمود زنكي[6]. وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذه البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة، تكون صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفاً وقطّعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 111.
(2) المصدر نفسه، ص: 112.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 112.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.
(5) الدّر المنتخب، ص: 230، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.
(6) نهر الذهب (2/ 64)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.

الموقع، فبنوا البيمارستان[1] فيه وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء[2].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميّة[3]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمٰن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قِسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محيي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته[4]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معراشا، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربية طاهر باب الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَايا من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المُطخ، اثني عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرّة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات وعشرة دكاكين بسُوق الهواء منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجِنان[5]، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير[6]، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشمل على كثير من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان[7]، مما يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها[8].

ب ـ **البيمارستان النوري في دمشق**: ينسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود زنكي قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير[9]، وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه قصة عجيبة وهي: أن نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.
(3) أخبار حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي، ص: 167.
(4) نهر الذهب (2/ 65، 66)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.
(5) الدر المنتخب، ص: 231، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.
(7) خطط الشام (6/ 187)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.
(9) التاريخ الباهر، ص: 170، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 456.

نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه، فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين وهما: الفِداء، وموت ذلك اللّعين، فبنى نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم[1]، كما علق أبو شامة على قول ابن الأثير: بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير[2]، فقال: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه والله المستعان، وإنما صرّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى، وروي أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه - أي دواء للعلاج - وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي. والله أعلم[3]. وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين[4] رَحِمَهُ اللَّهُ. وذكر كرد عليّ أن هذا البيمارستان ظل عامراً إلى سنة (1317هـ/ 1899م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة السليمانية المطلّة على المرج الأخضر وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في 15 ذي القعدة 1317هـ بافتتاح المستشفى الجديد[5]، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة (1356هـ/ 1937م) داراً لمدرسة التجار الرسمية[6]. وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة وقد رُمّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية[7].

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن العهد الزنكي، ص: 456.

(2) المصدر نفسه، ص: 457.

(3) المصدر نفسه، ص: 457.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 457.

(5) خطط الشام (6/ 159)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 408.

(6) تاريخ البيمارستانات، ص: 213 أحمد عيسى.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 458.

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة (570هـ/ 1174م) فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخّر عنه، وكان بعد فراغه من ذلك، وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره[1]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرِستانبن[2] اللذين في صدر الإيوان[3]. كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الدين ابن النقاش[4]، المتوفى سنة (574هـ/ 1178م)[5] فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشر المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة (621هـ/ 1224م) وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق[6].

2 ـ المساجد:

اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبدة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم[7]، ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعيَّن له أوقافاً[8]. وأصلح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 146.
(2) تعني المكان اللائق أو المخزن أو الخزانة.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 147.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 147.
(7) المصدر نفسه، ص: 110.
(8) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 116.

المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسمّاها مال المصالح[1] وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان[2] وبنى جامعاً في حماه على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها[3]، وأمر بإصلاح الجوامع (المساجد) في جميع المدن التي تأثرت بالزلازل سنتي (552هـ، 566هـ)[4] وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية والتي من أهمها:

أ ـ في حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء السني والوقوف أمام المذهب الشيعي ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشرعية اللغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشىء في حلب وهو:

ـ المسجد الكبير: وقد ذُكر أن موضع هذا الجامع كان بستاناً للكنيسة العظمى في أيام الرّومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع[5]، وقد ذكر ابن شداد أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة (96 ـ 99هـ/ 705 ـ715م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد[6] وفي شعبان سنة (564هـ/ 1169م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة له، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عُمداً من بُعادين، وقنسرين لأن العمد التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم أشهر حارات حلب وأقدمها ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب، وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة (482هـ/ 1089م)[7]. أما

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188، الكواكب، ص: 17.

(2) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(3) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(4) الدر المنتخب، ص: 61، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 389.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.

(6) زبدة الحلب (2/ 105)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.

النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية، كما كانت حِلق الأدب واللّغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه[1] وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع زاويتان إحداهما: لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى: لتدريس الفقه الحنبلي. وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسهما. وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود، توجيهاً منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف عليها وعلى المشتغلين بها[2].

ب ـ **المساجد في دمشق**: قامت العديد من المساجد في دمشق بدور في نشاط الحياة العلمية في هذا رغم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

ـ **الجامع الأموي**: يُعدّ الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهرة من الصُنّاع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مرّ العصور[3]. وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مرّ العصور الإسلامية وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أو صيانته وزيادة الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تعد في جنباته، والصرف عليها[4]، وقد ظل الجامع مُنذ بنائه مناراً للعلم والمعرفة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه، تُلقى الدروس العلمية من كل فن، وإليه يفِد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف وتدريس العلوم، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزاً علمياً بارزاً، فيه تُعقد حِلق التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث،

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390 ، 391.

(2) المصدر نفسه، ص: 390 ، 391.

(3) الحياة العلمية في عهد الدولة الزنكية، ص: 416.

(4) المصدر نفسه، ص: 417.

وفيه صُنفت وأمليت العديد من المؤلفات المُهمّة مثل: تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادسة والزاوية الكوثرية، والسُّبع المجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم باقية حتى اليوم، ويصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السُروجي المتوفى سنة (572هـ ـ 1176م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنها جنة للخُلد دانية ... قُصُورها فتحت منها المقاصير

في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع جامع للدين معمور

يُتلى القرآن به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه والتفاسير

تكامل الحسنُ فيه مثل ما كمُلت ... أوصاف مولى بنشر العدل مشهور

الملك والدّينُ والدّنيا بأجمعها ... وللخليفة من أنواره سُورُ[1]

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع:

الزاوية الغزالية:

تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفى سنة (490هـ/ 1097م) ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (505هـ ـ 1112م)[2] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانِقاه السِميساطيّة ليدخل إليها فمنعه الصُوفيّة من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِم مكانه، وعُرِفت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعرفت تلك الزاوية به[3] وقد درّس مجموعة من العلماء في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم: تلميذه عالم

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 418.

(2) سير أعلام النبلاء (19/ 322، 346).

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 416.

الشام أبو الفتح نصر الله المصيصي المتوفي سنة (542هـ/ 1147م) والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسي المتوفي سنة (561هـ/ 1166م)[1]، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف: بابن عبد المتوفى سنة (562هـ/ 1167م) والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة (563هـ/ 1168م)، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفي سنة (563هـ/ 1168م)[2]، ثم درّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُوري المتوفى سنة (578هـ/ 1182م)[3]. إن تدريس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما أن هذا النشاط يفوق نشاط الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيما وأن هذه الزاوية تناوب عليها جُلة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر[4].

ـ **السبُع المجاهدي**: يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه ويقع هذا السبع على ما ذكر النعيمي داخل الجامع بمقصورة الخِضر داخل باب الزيادة، ويُنسب للأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامِين أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة مواظب على الصلاة والصدقات توفي في داره بدمشق (في صفر 555هـ/ 1160م) ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه[5].

ـ **الحلقة الكوثرية**: تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلّاسة تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي[6]، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر «سورة الإخلاص» ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف ولهم على ذلك مُرتّب يتناولونه من ديوان السُبع الكبير[7]. وقد ذكر النعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر واقفها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالباً[8].

ـ **حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر**: ورد في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 419.
(2) طبقات الشافعية (4/ 159) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 418).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 420.
(4) المصدر نفسه، ص: 420.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 420.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 421.
(7) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 451).
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 421.

العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفى سنة (588هـ/ 1192م) أنه قدم دمشق سنة (540هـ/ 1145م) فنزل بها وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر[1].

ـ **مجلس الحافظ ابن عساكر**: ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد[2]، وكان الجامع الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالي وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية بدمشق، والتي أملى كثيراً من مجالسه فيها[3]، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس السماع ـ مصنّفة الكبير «تاريخ دمشق» ـ وقد حفظت لنا العديد من هذه السماعات ونُشرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السماع، وعدد سطور السماع، وعدد السامعين وهي الأمور التي لا بد من ذكرها عند تمام السماع[4].

ـ **جامع القلعة**: هذا الجامع أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه[5]، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية مدرسة بجامع القلعة واقفها الشهيد نور الدين محمود، كما ذكرها النعيمي باسم: المدرسة النورية الحنفية الصغرى، بجامع قلعة دمشق[6].

ج ـ **في الموصل، جامع نور الدين محمود**: كان من ضمن أعمال نور الدين، أمره ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين، وكان قد فوّض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملا، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة (566هـ/ 1171م) واستمر العمل فيه نحو ثلاث سنوات[7]، وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة (568هـ/ 1173م) وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران، وعيّن له مؤذنين وخطيباً ورتب ما يلزمه[8]، وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان[9]، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الدين أن من الأفضل، أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم، فأمر ببناء مدرسة بداخله، ووافق أن وصل الموصل في تلك

---

(1) شذرات الذهب (4/ 292) الحياة العلمية، ص: 421.
(2) معجم الأدباء (13/ 81).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 422.
(4) المصدر نفسه، ص: 422.
(5) المصدر نفسه، ص: 422.
(6) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 648).
(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 356.
(8) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 356.
(9) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 357.

السنة الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي، ففوّض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك[1]. هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد[2]. وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم، والتخصصات وكانت تلك المكتبات تُوقفت خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشَرقيّة لجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة[3]. وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمثابة المعاهد العلمية المُشعّة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة وخرّجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقديم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجدت الكثير من الأوقاف التي قُررت لمن يرتاد هذه المساجد معلّماً أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

3 ـ المدارس:

كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عرف بالمدارس وقد ناقش شلبي هذا الأمر وعلله بأمور عديدة من أهمها:

ـ ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حِلق التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان يبتعث من كل حلقة من هذه الحِلق صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يناقشونه ويسألونه، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلَق المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئاً من الضجيج مما يتنافى مع مكانة المسجد، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً أمراً صعباً[4].

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 357.
(2) المصدر نفسه، ص: 114.
(3) المصدر نفسه، ص: 115.
(4) تاريخ التربية الإسلامية، ص: 113.

ـ تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه روّاد المسجد من هدوء وسكينة[1].

ـ انشغال جماعة من المسلمين بالتعليم في حلق المساجد معظم وقتهم، ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهة أخرى[2]، وعلى هذا الأساس بُدِءَ بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم «المدرسة» ومن ثم بدأت طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع الزمن[3]. وتطورت المدارس وازداد انتشارها في زمن السلاجقة على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي، وقد ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بَهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة[4]، وقد تحدثت عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شاهدت حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً فقد أخذ في إنشائها واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة[5].

أ ـ المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام (541هـ/ 1146م) والذي ركز نشاطه مُنذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء، عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عدد من العلماء الأكفّاء لتولي المهمة وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من

---

(1) تاريخ التربية الإسلامية، ص: 113.

(2) المصدر نفسه، ص: 114، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 122.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 122.

(4) المصدر نفسه، ص: 22، طبقات الشافعية (4/ 313).

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 125.

تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة، بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة[1]، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة، التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة من مظاهرها إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها، حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة كان من مظاهرها: إنشاء لعديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها، حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المهمّة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي، في نفس القوة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم[2]. وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

المدارس الشافعية

المدرسة الزّجاجية: تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (517هـ/ 1123م) وهي أول مدرسة سنية فيها، وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئاً في النهار خربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك، فأحضر الشريف زهرة بن علي الحُسَيني أوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ليكفّ عنه الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منه[3]. وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها[4]. ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر حلب في سنة (522هـ/ 1128م) نقل والده وكان مدفوناً في قرنبيا[5]، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقهين المرتبين بها[6]، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي:

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 389.
(2) المصدر نفسه، ص: 389.
(3) المصدر نفسه، ص: 84 ، 85.
(4) المصدر نفسه، ص: 85.
(5) قرنبيا : يقع شرقي حلب.
(6) الدر المنتخب، ص: 110، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 392.

شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن الحلبي المتوفى سنة (561هـ/ 1166م)[1]، حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف: بابن العجميّ، وقد استمر شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفي سنة (561هـ/ 1166م)[2]، وتولى التدريس بها بعده حفيداه: مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/ 1201م)[3] وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهبل المتوفى سنة (590هـ/ 1194م)[4]، وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين[5].

ـ **المدرسة النِضريَة (النورية)**: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة (544هـ/ 1149م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري، وهو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/ 1201م)[6]، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدرّس به إلى أن توفي[7].

ـ **المدرسة العصرونية**: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك سنة (550هـ/ 1155م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية[8]، وبعد أن أتمّ نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1183م)[9]، وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أوّل من درّس بها فعُرفت به ونسبت إليه[10]، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدرّس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة (570هـ/ 1174م)[11]، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمٰن، وظل هذا حتى

---

(1) طبقات الشافعية (7/ 147)، الحياة العلمية، ص: 392.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 393.
(3) شذرات الذهب (4/ 324) الحياة العلمية، ص: 393.
(4) الحياة العلمية، ص: 393.
(5) المصدر نفسه، ص: 393.
(6) المصدر نفسه، ص: 394.
(7) طبقات الشافعية للأسنوي (1/ 372).
(8) الدر المنتخب، ص: 110، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 395.
(9) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 394.
(10) المصدر نفسه، ص: 395.
(11) وفيات الأعيان (3/ 54) الحياة العلمية، ص: 397.

ولي قضاء حماة فغادر حلب[1]. وممن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد ابن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقلي المتوفى سنة (565هـ / 1169م)[2]، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنّف كتباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة وأظنها فتنة سنة (552هـ/ 1157م)[3]، ونُهبت كتبه فيما نُهب وخسر جزءاً من مؤلفاته القيمة، فرحل إلى حماه وأقام بها حتى وفاته[4].

ـ **المدرسة الشرفية**: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن الحلبي المعروف: بابن العجمي المتوفى سنة (561هـ/ 1166م) وقد صرف شرف الدين على بنائها ما نيف على أربع مئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافاً جليلة[5].

ـ **المدرسة الأسدية الجُوّانية**: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى ابن مروان المتوفى سنة (564هـ/ 1168م) الذي أنشأها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي[6].

ـ **المدرسة الشُعيبيّة**: كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال: إنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِريّ المتوفى سنة 313هـ، فلما ملك نورالدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلس إلى حلب فصيّر له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة (596هـ/ 1199م)[7].

٥ ــ المدارس الحنيفية:

المدرسة الحلّاوية (الحَلَويّة): يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلارني أم قسطنطين، فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة (518هـ/ 1124م) قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، عمد القاضي أبي الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيّرها مساجد، وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً: بمسجد السّراجين، فلمّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 397.
(2) المصدر نفسه، ص: 397.
(3) المصدر نفسه، ص: 397.
(4) معجم الأدباء (19/ 48) بغية الوعاة (1/ 142، 143).
(5) الدر المنتخب، ص: 112، الحياة العلمية، ص: 398.
(6) الحياة العلمية، ص: 399.
(7) المصدر نفسه، ص: 400.

إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة (544هـ/ 1149م)[1]، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفامية مجموعة من الرخام الشفّاف الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ووصفه فيها[2]، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامِكِيّة، وكان من شروط الواقفة: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس، يصنع بها للفقهاء طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة، وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضاً الحلوى، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمشاً وتوتاً[3].

ـ **المدرسة المقدمية**: ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المُعدّم، وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة (518هـ/ 1124م) وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتدئ في عمارتها سنة (545هـ/ 1150م)[4]. وكان أول من درّس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي مدرس المدرسة الحلاوية، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادى الآخر سنة (616هـ/ 1219م)[5].

ـ **المدرسة المجدية الجُوّانية**: ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود، وهو مجد الدين أبو بكر محمد ابن الداية المتوفى في رمضان سنة (565هـ / 1170م)[6].

ـ **المدرسة البرّانية**: ذكرها ابن الشحنة أيضاً، ونسبها إلى مجد الدين ابن الداية مؤسس الجوانية[7].

ـ **المدرسة الحدّادِيّة (الحدّادين)**: ذكر ابن شداد أن منشيء هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة (518هـ/ 1124م)[8].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 400.
(2) المصدر نفسه، ص: 400.
(3) المصدر نفسه، ص: 401.
(4) المصدر نفسه، ص: 404.
(5) المصدر نفسه، ص: 405.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 406.
(7) أحياء حلب وأسواقها، ص: 142.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 406.

ب ـ **في دمشق**: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة (491هـ/ 1097م) وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق سنة (549 ـ 569هـ/ 1154 ـ 1174م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي[1].

المدارس الحنفية:

ـ **المدرسة الصادرية**: أنشئت هذه المدرسة على يد أمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة (491هـ/ 1097م) داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق[2].

ـ **المدرسة الطرخانية**: قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن، فوقفها آق سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة[3].

ـ **المدرسة المُعينيّة**: ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المُعينيّة في قصر الثقفيين[4]، وقال ابن شداد بحصن الثقفيين أنشأها معين الدين أنر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكام البوريين بدمشق[5]، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف: بابن الحكيم العراقي مُدرّسي الصادرية والطرخانية المتوفى سنة (567هـ/ 1171م)[6].

ـ **المدرسة النُورية الكبرى**: ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخوّاصين[7]، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي[8]، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة (580هـ/ 1184م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وأنها قصر من القصور الأنيقة[9]. وفي هذه المدرسة يقول الشاعر

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 423.
(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 537).
(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 425.
(4) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 426.
(5) الحياة العلمية، ص: 426.
(6) الدارس في تاريخ المدارس (2/ 203).
(7) يسميه أهالي دمشق حالياً: سوق الخياطين.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 427.
(9) الرحلة، ص: 256، الحياة العلمية، ص: 428.

المشهور عرقلة الدمشقي المتوفى سنة (567هـ/ 1171م)[1]:

ومدرسة سيدرس كُلُّ شيء ... وتبقى في جِمى علم ونُسكِ
تضوّع ذكرُها شرقاً وغرباً ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت مُلكي ... وهذي في المدارس بيت مِلكي[2]

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور، يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومُدَرِّسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها: إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد[3]، واستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة، يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق على ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً ونص هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، ووقف عليها، وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمّام المُستجد بسوق القمح، والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهرِ باب السلامة والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾[4].

ـ **المدرسة الخاتونية البرّانية**: كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الست زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقاق بن تُتُش المتوفاة سنة (557هـ/ 1161م)[5]، وتاريخ وقفه سنة

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 429.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 429.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 429.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 430.
(5) المصدر نفسه، ص: 430.

(526هـ/ 1132م) على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفي سنة (548هـ/ 1153م)[1]، وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم استنسخت الكتب، وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودفنت بالبقيع[2].

المدارس الشافعية:

ـ **المدرسة الأمِينيّة**: ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق، بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له: أمين الدولة، وكان مبدأ التدريس بها سنة 514هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُلمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزالية والأمِينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفى سنة (533هـ/ 1138م)[3].

ـ **المدرسة المجاهدية الجُوانية**: وواقف هذه المدرسة الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله[4].

ـ **المدرسة المجاهدية البرانية**: تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزّان واقف المدرسة المجاهدية الجُوّانية وقد دفن فيها بعد وفاته[5].

ـ **المدرسة العمادية**: بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درّس بها[6]، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده، وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة (567هـ/ 1172م) فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعوّل علي في التدريس بها والنظر في أوقافها[7].

ـ **المدرسة العصرونية**: تنسب هذه المدرسة للفقيه العلّامة قاضي القضاة شرف الدين

---

(1) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 502، 503).
(2) العبر (3/ 27)، الحياة العلمية، ص: 431.
(3) الحياة العلمية، ص: 432.
(4) الدارس (1/ 451)، الحياة العلمية، ص: 435.
(5) الدارس (1/ 453، 454)، الحياة العلمية، ص: 437.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 438.
(7) المصدر نفسه، ص: 439.

عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1189م)[1] وقد بنى له مدارس عديدة بحلب وحماه وحمص وبعلبك وغيرها[2]، وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق[3]، يقول عنه ابن خلكان: توفي ليلة الثلاثاء الحادية عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به[4].

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

ـ **المدرسة الأسدية**: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة (564هـ/ 1168م)[5]. وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين: الحنفي والشافعي ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ الحنفي المعروف: بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة (584هـ/ 1188م)[6]. وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدّث وأفاد ودرّس بالأسدية[7].

المدارس الحنبلية:

ـ **المدرسة الحنبلية الشريفية**: ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخ صلاح الدين يوسف بن أيوب[8].

ـ **المدرسة العمرية**: سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير[9]، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامه المتوفي سنة (558هـ/ 1163م) يرجع سببه إلى كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فرّ بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة (551هـ/ 1156م) ونزلوا في سفح جبل قاسِيون بمسجد أبي صالح، ولهذا عرفوا: بالصالحين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير

(1) الحياة العلميّة في العهد الزنكي، ص: 440.
(2) وفيات الأعيان (3/ 54)، الحياة العلمية.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 441.
(4) وفيات الأعيان (3/ 55).
(5) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 152).
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 444.
(7) الدارس (1/ 473)، الحياة العلمية، ص: 444.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 444.
(9) المصدر نفسه، ص: 446.

الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح[1]، وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقرّ نزلهم في الجبل وكان الناس يزورن الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته[2].

المدارس المالكية:

ـ **المدرسة النورية الصلاحية: ذكر الإربلي**: المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها[3]، وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب[4]. هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

5 ـ دور الحديث:

على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس، وإن لم تعمل اسمها، فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمى مدرسة. ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية يخصصه لهذا العلم، وقد عنى المسلمون بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة، باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رُواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبنيًا على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي ﷺ[5]. وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة

---

(1) القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية (1/ 125).

(2) المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، ص: 39.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 448.

(4) المصدر نفسه.

(5) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ص: 132.

وتدريساً، وتشييد دُور خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام كما ذكرنا ذلك وهي دار الحديث النُورية بدمشق، والتي أولى مهمة التدريس فيها، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره هو الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م)[1]، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة، سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي وتحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني[2]، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقراً لذلك النشاط[3]. وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى، سوى في كون المناهج في الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث، بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر، وهذه خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتم في حِلَق المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية، ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه[4].

أ ـ في حلب: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها وكانت أبرز تلك الدور ما يأتي:

ـ دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود[5]، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم والتي سبق الحديث عنها[6].

ـ دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الداية المتوفى سنة (565هـ/ 1170م)[7].

---

(1) التاريخ الباهر، ص: 172، الحياة العلمية، ص: 133.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 133.
(3) المصدر نفسه، ص: 133.
(4) المصدر نفسه، ص: 134.
(5) الدر المنتخب، ص: 123.
(6) المصدر نفسه، ص: 408.
(7) المصدر نفسه، ص: 408.

ـ دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانِقاه التي بنتها[1].

ب ـ **في دمشق**: سبقت الإشارة إلى أن الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وإنشاء دُور خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة (571هـ 1176م)، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار[2].

ـ **دار الحديث النُورية**[3]: أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وأنها أول دار من نوعها في الإسلام[4]، قال عنه ابن الأثير: وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه[5]، وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة (571هـ / 1176م)[6]، وكان من بين تآليف الحافظ كتاب سمّاه: «تقوية المنّة على إنشاء دار السُنة» في ثلاثة أجزاء[7]، حيث كانت هذه الدار تُسمى دار السنة في السماعات القديمة التي قُرئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير وابنه القاسم بهاء الدين المتوفى سنة (600هـ / 1203م) من بعده، ثم تناوب فيها جُلّة من علماء الحديث البارزين وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)[8].

6 ـ الخوانق والرُبط:

تُعد الخوانق والرُبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 408.
(2) المصدر نفسه، ص: 450.
(3) المصدر نفسه، ص: 450.
(4) المصدر نفسه، ص: 450.
(5) التاريخ الباهر، ص: 172، كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 450.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 450.
(7) معجم الأدباء (13/ 78)، الحياة العلمية، ص: 450.
(8) الحياة العلمية، ص: 451.

التصوف سلوكاً بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية التصوف[1]. وكان التصوف في تلك المدة اتجاهاً له نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد برز نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته[2]، وكانت مراكز الصوفية تلك مكاناً للعبادة والدرس قدمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك[3]، وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم، وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون لأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدور لإقامتهم حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيداً عن مشاغل الحياة، وكان مُنشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى من ينزل بها من الصوفية.

أ ـ في حلب: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي من أشهرها:

ـ **خانقاه البلاط**: ذكر ابن شداد أن مُنشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان ابن تاج الدولة تُتُش السلجوقي، وهي أول خانقاه بنيت بحلب، وذلك سنة (509هـ/ 1115م)[4].

ـ **خانقاه ابن العجمي**: تنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر بن العجمي أخو الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن المتوفى سنة (561هـ/ 1166م)، وكان موقع هذه الخانقاه داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما تُوفي سنة (531هـ/ 1136م) أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصُوفيّة، وجعل لها وقفاً يدرّ عليها[5].

ـ **خانقاه القديم**: أنشأها نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي[6].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 135.
(2) الباهر، ص: 171، الحياة العلمية، ص: 135.
(3) الحياة العلمية، ص: 135.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 409.
(5) المصدر نفسه، ص: 409.
(6) المصدر نفسه، ص: 410.

ـ **خانقاه ابن المقدم**: تُنسب هذه الخانقاه لعز الدين عبد الملك المقدم منشىء المدرسة المقدمية الحنفية المتقدم ذكرها.

ـ **خانقاه النفر**: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي، وسميت بهذا الاسم؛ لأنه كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك، وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة[1].

ـ **خانقاه مجد الدين ابن الداية**: تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد ابن الداية المتوفى سنة (565هـ/ 1170م)[2].

خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصّة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق مخصّصة لإقامة النساء، يتعبّدون فيها ويتلقين دروساً في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب خانقاه نور الدين، حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة (553هـ/ 1158)م على الأرجح[3]، ولكنه لم يُحدد موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر. هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد، نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس وحلق ووعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس والبعد عن الدنيا[4].

ب ـ **في دمشق**: وجدت دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرّبط، وكان له مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كان ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوُّف بها كنشاط أساسي أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت ما يأتي:

ـ **الخانقاه السُميساطية**: تُنسب هذه الخانقاه للسُميساطي أبي القاسم علي بن محمد ابن يحيى السُلمي الحُبيْشبيّ المتوفى سنة (453هـ / 1061م)، كان من أكابر الرؤساء في دمشق[5]، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكِيّ

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 411.
(2) المصدر نفسه، ص: 411.
(3) المصدر نفسه، ص: 411.
(4) المصدر نفسه، ص: 412.
(5) المصدر نفسه، ص: 451.

فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده، وأنزله هذه الخانقاه وجعله شيخها وساهم أبو المظفر في زيادة عمارتها[1].

ـ **خانقاه القصر**: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الملوك وذكر الحُسيني[2]، أنه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة (529هـ/ 1135م)، أما ابن جبير السابق لهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة (580هـ/ 1184م) ووصفها بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف: بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتّصل به، وكانت متنزّهاً لأحد الملوك الأتراك فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فأهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوعبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم، فطال العجب من السماحة بمثله، وبقي أثر الفضل فيه مخلداً لنور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ[3].

ـ **الخانقاه الأسدِيّة**: تنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة (564هـ/ 1168م)[4]، منشىء المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرف القبلي ظاهر دمشق[5]، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بدرب الهاشميين المعروف: بباب الوزير[6].

ـ **خانقاه الطاحُون**: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي خارج البلد بالوادي[7].

ـ الرباط البياني: جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: رباط أبي البيان بناء بحارة درب الحجارة[8]. وذكر السبكي أن هذا الرباط يُنسب إليه إنما أنشىء بعد موته بأربع سنين اجتمع أصحابه على بنائه، وقد أعانهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكاناً بحُرّين[9].

ج ـ في الموصل: كان في الموصل في العهد الزنكي ربُطٌ عديدة شاركت في نشاط

---

(1) الوافي بالوفيات (15/ 224)، الحياة العلمية، ص: 453.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 454.
(3) الرحلة، ص: 257، الحياة العلمية، ص: 454.
(4) الحياة العلمية، ص: 455.
(5) المصدر نفسه، ص: 455.
(6) المصدر نفسه، ص: 455.
(7) المصدر نفسه، ص: 455.
(8) المصدر نفسه، ص: 456.
(9) طبقات الشافعية (7/ 319)، الحياة العلمية، ص: 456.

الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصوف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد[1]، وكان من أشهر الربط التي كانت قائمة بالموصل:

ـ **رباط الملك سيف الدين غازي**: أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (541 ـ 544هـ/ 1146 ـ 1149م) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته[2].

ـ **رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني**: يُنسب هذا الرّبَاط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف: بالجواد المتوفى سنة (559هـ/ 1164م)[3]، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى الرّبط بالموصل، وسنجار ونصيبين وغيرها[4].

ـ **الرّباط الزيني**: لم يقتصر بناء الرّبط على الملوك الزنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزرائهم فأنشأوا الكثير من الرّبط في الموصل وغيرها، كما أنشأوا دُور التعليم الأخرى، وكان ممن أنشأ رباطاً بالموصل الأمير زين الدين علي بن بُكتكين المتوفى سنة (563هـ/ 1167م) منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى مدارس ورُبُطاً بالموصل وغيرها[5].

ـ **رباط بن الشهرزوري**: أشار إليه ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم ابن عقيل بن نصر الإربلي المتوفى سنة (619هـ/ 1222م) حيث ذكر أنه ساكن ظاهر الموصل في رباط الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي[6].

وقد قامت الخوانق والربط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد وجمع المعلومات وتحريك العامة والدعاء للجيوش الإسلامية، ومقاومة التشيُّع الرافضي، وتعليم الجهّال أمور دينهم. وكانت الدولة النورية تشرف على ذلك وتوظف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض. وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها والإشراف عليها يُسمى: شيخ الشيوخ، وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شروط عدة وآداب تؤهله لذلك منها ما ذكره السبكي من أنه

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 384.
(2) الباهر، ص: 63 مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 384.
(3) الحياة العلمية، ص: 384.
(4) التاريخ الباهر، ص: 129، الحياة العلمية، ص: 385.
(5) الحياة العلمية، ص: 385.
(6) معيد النعم، ص: 97، الحياة العلمية، ص: 137.

لا بد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصاً على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها[1]. وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حموية المتوفي سنة (577هـ/ 1181)م[2]. وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علماً وزهداً، ففوض إليه سنة (563هـ/ 1167م) مشيخة الخوانق والرُبُط في كل من دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وبعلبك[3]، ومنذ أن تولى الشيخ عمر بن حموية هذا المنصب أطلق عليه لقب شيخ الشيوخ وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق منُذ ذلك الوقت[4].

6 ـ الكَتَاتيب:

الكَتَاتِيب أو الكُتَّاب: يطلق على المحل الذي يتعلم به الصبيان، وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، وقد اتخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد وغرفاً ملاصقة لها لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، في شتى المدن الزنكية من ذلك الحلقة الكوثريّة والمجتمع السُبعي وكلاهما في الجامع الأموي[5]، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيراً من مُعلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكانوا يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد فلزم حضور الصبية إليهم، وبجانب هذه الكتاتيب قامت أخرى مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصاً على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب: (مكاتب الأيتام)، أو مكاتب السَبيْل، وقد خصّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر ما يكفيهم[6]، كما تحدث ابن جبير

---

(1) العبر الذهبي (3/ 74)، الحياة العلمية، ص: 137.
(2) الدارس (2/ 153، 154)، الحياة العلمية، ص: 137.
(3) الحياة العلمية، ص: 138.
(4) المصدر نفسه، ص: 119.
(5) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 120.
(6) الرحلة، ص: 245.

عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما نقوم بهم وبكسوتهم[1]. كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب، انتقل إلى المدرسة إن رغب في مواصلة دراسته وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة (595هـ/ 1199م) إذ أنشأ مكتباً للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة[2]، وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها[3]، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة[4]. وهكذا نرى أن للأطفال نصيب في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السني الكبير.

7 ـ المكتبات:

تعدُّ المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر، وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات ينفق عليها الملوك والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تُنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتعذَّر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقلّة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تُنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات)[5]، وقد اهتم الزنكيون ـ كغيرهم ـ بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلّما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصُّصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي

(1) وفيات الأعيان (4/ 82، 83)، الحياة العلمية، ص: 121.
(2) الحياة العلمية، ص: 121.
(3) المصدر نفسه، ص: 121.
(4) المصدر نفسه، ص: 121.
(5) المصدر نفسه، ص: 154.

أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيّمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها[1]. وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة[2].

8 ـ الإنفاق على الأيتام والأرامل:

كان طبيعة المجتمع جهادي، واشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة، وترتب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء وخرجت للوجود ظاهرة الترمُّل ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوغى. وأشرفت الدولة النورية على تزويج الأرامل والاهتمام بهن، ووجد الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم في ساحات الهيجاء العناية والاهتمام، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء[3]، ففي سنة (569هـ/ 1173م) استدعى نور الدين محمود ابن زنكي رؤساء دمشق ومشايخها ومقدّمي حاراتها ودروبها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فعرّفوني باليتامى والأرامل ومن انقطع عن التكسب، ومن اختلت أحواله لأنظر في حالهم، ففعلوا ذلك فبعث إليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف[4]، وكان نور الدين محمود يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك أو موتاً طبيعياً، فإن توفي أحد أجناده وله ولد يقره على إقطاع أبيه، وإن كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب[5].

9 ـ الإنفاق على الحصون والخانات و«المجال العمراني»:

كان نور الدين محباً للبناء والعمران ولكن ليس لبناء القصور وأماكن اللهو، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى، إنما العمران الذي يقضي الحاجة، ويخدم مصالح الأمة، كأسوار المدن والقلاع والحصون الضرورية لحماية السكان وصدّ هجمات العدو، وإسكان الجند، وحفظ المؤن والأسلحة اللازمة للقتال، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة

---

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 154.

(2) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 154.

(3) زبدة الحلب (2/ 39)، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 261.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الخدمات العامة في بغداد، ص: 80.

(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 191.

الفرنجة، ثم المساجد والمدارس ودور الأيتام والغرباء الضرورية لتربية الأجيال على الخير والصلاح، والمستشفيات والأسواق والخانات والحمامات والقنوات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة، هذا هو العمران الذي أحبه نور الدين، وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه[1]، فقد بنى أسوار مدن بلاد الشام جميعها وأصلح القلاع والحصون بعد الزلازل التي حصلت عام (552هـ/ 1157م)، وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام (566هـ/ 1171م)[2]، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة يقول ابن الأثير في ذلك: فمن ذلك أنه بنى أسوار الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس[3]، وكنا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس والمستشفيات ودور الأيتام والمساجد، ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية وما جاورها من بلاد الشام حتى المدن الرئيسية (دمشق، حلب، حماه، حمص) ووضع فيها حاميات صغيرة ومعهم الزاجل لينذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجة، فيستعد المسلمون للقائهم، فكانت هذه الأبراج تعمل كنقاط مراقبة دائمة لتمرير المعلومات عن العدو[4] وأما ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات والحمامات، والأسواق ودور الوضوء فقد تميزت مدن الشام بكثرتها وترتيبها ونظامها، فقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعة كأنها الفنادق مشقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور[5]. ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: أما البلد فموضوعه ضخم جداً جميل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى إلى أن تفرّع من جميع الصناعات المدنية وكلها مشقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخلّلتها شُرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم، وهذا الجامع

---

(1) سنا البرق الشامي، ص: 27.

(2) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.

(3) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(4) الباهر، ص: 171، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(5) رحلة ابن جبير، ص: 235 ، 236.

من أحسن الجوامع وأجملها وحسنه أكثر من أن يوصف، ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة[1]، واتسعت مدن بلاد الشام وتضاعف عدد سكانها عدة مرات خلال عهد نور الدين[2]. فقد كانت بنايات مدينة دمشق ـ أحياناً ـ من ثلاثة طبقات تحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة وصارت تعاني من كثرة العالم وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً، ولم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مُغل، ومع أن نور الدين كان يركز في البناء والعمران على البساطة والمتانة، إلا أنه كان يميل إلى تجميل البناء وتحسينه ليكون البناء متناسقاً حسن الصورة مع عدم المبالغة في الزخرفة والتزيين، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرّخام الشفاف من مدينة أفاميه، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بفصوص من الذهب وبنى في قلعة دمشق داراً عامّة سمّاها: دار المسرّة، وأوقف بعض البساتين في دمشق على تطييب جوامعها ومدارسها[3]. لقد شكلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة. والجدير بالملاحظة والاعتبار أن نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة، فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة[4].

10 ـ فك الأسرى:

وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام، فكان يقول: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم[5].

11 ـ في عام 569هـ شهدت خدمات اجتماعية كبيرة:

في عام (569هـ) ـ السنة التي توفي فيها نور الدين ـ شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات: فزيدت الأوقاف ووسِّعت الصدقات، ووفرت النفقات، ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب، وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين

---

(1) رحلة ابن جبير، ص: 203، 204، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(2) رحلة ابن جبير، ص: 230، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188.

(3) الكواكب الدرية، ص: 47.

(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188.

(5) رحلة ابن جبير، ص: 280، نور الدين محمود، ص: 118.

يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة، ملبساً ونفقة وإشباعاً إكساء الأيتام والنسوة وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء وختان الأطفال[1]. ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله: . . حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً وكان إذا مر بصدقة غلّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد: كم تعرف في جوارك من. . وغيرهم ؟ فيقول: أعرف كذا وكذا فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرّقه[2].

لقد تحقق في عهد نور الدين محمود ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب. . ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يمحى فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء ذلك الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقوم الناس إليها. لقد تحقق التعاون الفعّال بين القيادة والقواعد[3]، فنهض الجميع من كبوته واستوعب مشروعه الحضاري وقام بدوره الريادي. وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا المجتمع يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين: . . إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (580هـ)، خرج الناس لتلقيهم الجمّ الغفير رجالاً ونساءً يصافحونهم. . وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة. . وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم ـ إن أحبّ ـ ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء وحتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى[4]. وفي مكان آخر يقول ابن جبير شاهد العيان هذا ـ مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك: . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلّا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها لكفى بها فضلاً[5].

إن من أبرز المعالم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان وفطرة الإنسان، وحرمة

---

(1) زبدة دمشق (2/ 240)، نور الدين محمود، ص: 117.

(2) البرق، ص: 143، نور الدين محمود، ص: 117.

(3) نور الدين محمود، ص: 119.

(4) رحلة ابن جبير، ص: 259، نور الدين محمود، ص: 119.

(5) نور الدين محمود، ص: 119.

الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولمن يعول وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ: يكرم الإنسان من حيث هو إنسان من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: 70]. وأكد القرآن مع كتب السماء ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32]. كما أكد الإسلام: أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا إقليم ولا طبقة، وإنما يتفاضلون عند الله بالتقوى قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13].

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر جميعاً: بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء شرفاء ووضعاء مسلمين وغير مسلمين[1] في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقة البارزة في تاريخنا الإسلامي: البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم، أياً كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسكين، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق، وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: 8-9]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: 117] وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة وبعضها مندوبة وبعضها تطالب به الدولة، وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثَّلت في نظام الوقف الخيري، الذي رسخت جذوره، وسبقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية وتميَّز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم[2].

ـ ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ووضوحها في تاريخ

---

(1) تاريخنا المفترى عليه، للقرضاوي، ص: 138. (2) تاريخنا المفترى عليه، ص: 141.

أمتنا: كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان والبرية[1]، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير والمجاهد الشهير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه البديع من «روائع حضارتنا» عن هذه المؤسسات ـ فقال: كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء، ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسناً أن نلمّ بأهمها:

ـ **فمن أول المؤسسات الخيرية**: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

ـ **ومن المؤسسات الخيرية**: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر.

ـ **ومنها**: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله ﷻ.

ـ **ومنها**: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

ـ **ومنها**: السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

ـ **ومنها**: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُربة)، وحلوى، ويقول الدكتور السباعي: ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق.

ـ **ومنها**: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت وعمّت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

ـ **ومنها**: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون في تلك الأيام لخطر العطش.

---

(1) تاريخنا المفترى عليه، ص: 144.

ـ **ومنها**: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله ﷻ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا ـ أيام الهدنة ـ ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، (فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا) ويتبع ذلك أوقاف يُعطى ريْعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة في الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنة عرضها السمٰوات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم ـ لا أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم ـ لا أسبوعاً واحداً في العام ـ مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار.

ـ ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور.

ـ **ومنها**: ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

ـ **ومنها**: ما كان أكفاناً للموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

ـ **ومنها**: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، لليتامى ولختانهم ورعيتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

ـ وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم إليها اليوم.

ـ ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّصها للخير الخالص لله ﷻ، وقد كان من مبرّات صلاح

الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة - الباقية حتى الآن في دمشق - ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[1].

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف الزبادي[2] للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً. وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد فهذه ثلاثون نوعاً من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟ اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتظالم، اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيادي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والخير والكرامة والسلام[3]؟

المبحث السادس
أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير وفقه النهوض أن عز هذه الأمة وقوتها في تمسكها بدينها وعملها بكتاب ربها وسنة نبيها، وأن الجيل الأول من سلف هذه الأمة ما انتصر على أعدائه إلّا بقوة العقيدة، وأن النصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقرون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة، والعمل بمقتضاها، وأن هذه الأمة تكون هدفاً للسهام وطعمة لسيوف الأعداء بمجرد الزيغ عن هذه العقيدة، والانحراف عن هذا المنهج وأن الهزائم التي حلت بالمسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي

(1) من روائع حضارتنا مصطفى السباعي، ص: 178.

(2) الزبادي: جمع زبدية، وهي إناء من الفخار عادة، يوضع فيه اللبن حتى يتغمّر.

(3) من روائع حضارتنا، ص: 178، 182، تاريخنا المفترى عليه، ص: 148.

والفساد الفكري الذي أصاب الأمة[1]، وقد ألهم الله قادة الأمة من أمثال نور الدين محمود إلى إدراك دور العقيدة الصحيحة في صناعة النصر وأن الأمة بدونها تتحول إلى قطيع من الأغنام لا تقوى على شيء، ولذلك فإن أول ما بدأت به عملية التغيير والإصلاح والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص، بتجديد العقيدة في نفوس الناس وإزالة كل ما علق بالنفوس من بدع وعقائد فاسدة ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة عن طريق مؤسسات تجسد العقيدة في النفوس وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي النقي في عدد من المدارس والمساجد تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض قام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة وخيرة مفكريها[2].

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنة الذين زحفوا على بغداد واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذل الفاطمي الرافضي الشيعي، بعد الانقلاب الذي دبرته الدولة الفاطمية على يد القائد العسكري البساسيري، الذي تشيع وترفض واعتنق المذهب الإسماعيلي، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنية إلى أن السيوف تفل السيوف، وأن الحجة لا تقرع إلا بالحجة، وأن الأفكار والعقائد لا بد من غرسها عن طريق التعليم والتربية والتهذيب لا بالسيف والسنان خصوصاً وأن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الحق ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله، فأنشأوا لهذا الغرض ما عرف باسم «المدارس النظامية» نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك، وقد تحدثت عن سيرة نظام الملك والمدارس النظامية في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» وإلى جانب نظام الملك كان هناك عشرات من الذين تولوا الإدارة والجيش والقضاء والحسبة وآخرون تولوا القيام على المدارس النظامية كالإمام الجويني وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالي، وغيرهم، ولقد واجهت الدولة السلجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطني الذي انتشر في مختلف البقاع الإسلامية، لقد كانت المدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة من أمثال ألب أرسلان مع العلماء لمواجهة التحدّي الفاطمي الرافضي الباطني أطيب الأثر في وضع الأمة على الطريق الصحيح الذي سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين والعلماء العاملين المخلصين، فكانت لتلك الشجرة الطيبة الكثير من الغصون والثمار التي طابت وأينعت وامتدت ونمت وتفرّعت حتى عمَّ خيرها الجميع[3]، وقد تحدثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام

---

(1) لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس، ص: 320.
(2) المصدر نفسه، ص: 321.
(3) المصدر نفسه، ص: 322.

الغزالي في كتابي عن دولة السلاحقة وعن جهوده الفذة في مقارعة التشيُّع الرافضي الباطني، وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السني ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السني، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله.

وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الأساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ، واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يُقَدّر بأي ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكونت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان يجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور إلى ما يحقق المصلحة الإسلامية[1]. ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداد الأمة الإسلامية كلها إعداداً جديداً، وبنائها بناءً سليماً على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية والتحلية بالفضائل، والتخلية من الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء والمربين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية[2]، ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة[3]. وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة[4] منها فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما

(1) لا طريق إلا الجهاد، ص: 334.
(2) المصدر نفسه، ص: 334.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 257.
(4) المصدر نفسه، ص: 258، 259.

عمدت الخطة الحكيمة على تعرية المذاهب الهدّامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة وأن لا خروج من المحنة، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كانت عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية، لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروّجيها. لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهجاً، والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات كالصوفية المنحرفةِ التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني، فأقامت لشيوخها الزّوايا والأربطة وأنفقت عليهم الأموال، وأمدتهم بالعطايا والهبات، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه والإرشاد والتعليم والتهذيب حسب الخطة العامة للدولة وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى. لقد وجه التعليم الإسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكافة أنواعه من الإعداد المادي والمعنوي وتربية النفوس ومجاهدتها في ذات الله، ومجاهدة الشيطان والجهاد بالمال والنفس، والتعبئة الروحية العالية، وتربية الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى بالإضافة إلى طائفة مختصة عنت الدولة بإعدادها إعداداً قتالياً خالصاً، وتدريبها تدريباً عسكرياً متميزاً يجعلها تتفوق على ما عند الأعداء[1].

أولاً: فئات المدرسين في الدولة الزنكية:

1 ـ معلمو الكتاتيب:

الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الصبيان في العهد الزنكي هو (المعلم) أو (المؤدب). ومعلم الكتاب في ذلك العهد يماثل معلم المرحلة الابتدائية في عهدنا الحاضر، من حيث أنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية، ويشرف على تربيتهم وتوجيههم، وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى وقد اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتماماً خاصاً وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم، فوفّروا لهم كافة سبل العيش المريح للقيام بمهمتهم على أفضل وجه وأداء رسالتهم المهمّة في توجيه اللبنة الأولى في التعليم على

(1) لا طريق غير الجهاد، ص: 335.

النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة، هو إعدادهم مُنذ صغرهم ليتخرجوا صَحيحي العقيدة سَليمي الذهن[1] متأثرين بذلك التوجه الإسلامي ليتخذوا مواقعهم في المجتمَع، وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلاً على التوجه السليم والسياسة المرسومة[2]. وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظاً لكتاب الله ملمّاً ببعض علوم اللغة وأصول الحساب والخط[3]، وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجمُّلاً ورفعة، وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفى سنة (505هـ/ 1112م): إن صلاح التلميذ بصلاح معلمه، فإن أعينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو القبيح[4]، كما اشترط المُرَبون في المعلم أن يكون عادلاً بين الصبيان، وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء لا تفريق بينهم، فابن الفقير وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم[5]. هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والعفة، واستحب المربون في معلم الكتّاب أن يكون كبير السن[6]. وقد اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي الشيخ علي بن منصور السُرُوجي المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)[7] وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتربية أولاده وتعليمهم، وقد اشتهر السروجي ببراعته في الأدب والشعر وحسن الخط[8]. ولقد تمتع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ وفر لهم الواقفون رواتب شهرية تُصرف لهم من إيراد الوقف[9]، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة[10]، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم، بطمأنينة وراحة بال[11].

2 ـ المدرسون:

إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأناً عن نظام المدارس في العصر

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 166.
(3) مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (2/ 317).
(4) إحياء علوم الدين (1/ 63، 64).
(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 167.
(6) المصدر نفسه، ص: 167.
(7) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية ص168.
(8) المصدر نفسه، ص: 168.
(9) المصدر نفسه، ص: 169.
(10) كتاب الروضتين نقلا عن الحياة العلمية، ص: 169.
(11) الحياة العلمية، ص: 169.

الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر، ويشرف عليهم شيخ يسمى: ناظر المدرسة ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس وقد عني الزنكيون ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة[1]، وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب، أو معاليم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدرّه شهرياً أو سنوياً وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصص لهم من تلك الأوقاف فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة (600هـ/ 1203م)[2] وكان مدرساً بدار الحديث النورية بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئاً، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة[3]، وكان يحق للمدرس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب «نائب المدرس» وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس، ومن ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون درّس بالمدرسة الأمينية بدمشق[4]، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي[5]، المتوفى سنة (561هـ/ 1165م)[6].

3 ـ المعيدون:

من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشراً في جامعتنا في الوقت الحاضر لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري[7].

ثانياً: فئات الطلاب:

1 ـ طلاب المرحلة الأولى:

اهتم الحكام الزنكيون وبعض الموسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم

(1) الحياة العلمية، ص: 170.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.
(3) المصدر نفسه، ص: 176.
(4) الدارس (1/ 178)، الحياة العلمية، ص: 178.
(5) طبقات الشافعية (7/ 186)، الحياة العلمية، ص: 178.
(6) الحياة العلمية، ص: 178.
(7) المصدر نفسه، ص: 179.

صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرقاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن للقوم في التعليم سيرة بديعة، وهو أن الصغير منهم إذ عقل، بعثوه إلى المكتب[1] وقد حدد ابن الجوزي المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) بقوله: ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي، فإذا بلغ خمس سنين أخذ يحفظ العلم[2]، وأما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكُتّاب فهي أيضاً تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتّاب بسن البلوغ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب وهذه تتراوح ما بين الثانية عشر والخامسة عشر[3]، وكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت والأحد والإثنين والثلاثاء، والأربعاء، وصبحة الخميس حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة الراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض المناسبات العامة[4]، وأما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فتعلم أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمٰن بن نصر الشيزري المتوفى سنة (589هـ/ 1193م) الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها[5]. ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويدهم الآداب الحسنة[6]، وقد شبّه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ويهديهم الأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه[7]، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على

(1) أحكام القرآن (4/ 1895) الحياة الزنكية، ص: 193.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 193.

(3) المصدر نفسه، ص: 195.

(4) التربية والتعليم في الإسلام، ص: 78 محمد أسعد طلس.

(5) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص: 103.

(6) المصدر نفسه.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 197.

النحو الآتي: في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القرآن الكريم وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين، بمعنى أن المعلم كان يقرأ وعلى الصبي أن يكرر ما يقرأه معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها، وهكذا يستمر معه، وقد أكد ابن جبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين[1]. ويذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأن تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مدرس واحد وإنما يخصص معلم لكل منهما على حدة، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكتّاب الخاص بتعليم الخط، ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقاناً للخط لأن المعلم له لا ينشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك[2].

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبيلة دون السخيف والرذيل منها، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها[3]. هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم وكانت تتميز بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن، والحرص على تربية الصبية خلقياً إلى جانب تحصيلهم العلمي[4].

2 ـ طلاب المرحلة العليا:

يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب «الفقهاء» وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس[5]، ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالصف الأول: يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف والعمّال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر، ولا سيما مجالس الوعظ والإملاء وحِلق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما الصنف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق[6]، وكانت المساجد تقوم بالتدريس ولا يشترط في من يريد التعلم عدد معين،

(1) كتاب أدب المعلمين، ص: 76.
(2) الرحلة، ص: 245، الحياة العلمية، ص: 199.
(3) الحياة العلمية، ص: 200.
(4) المصدر نفسه، ص: 200.
(5) المصدر نفسه، ص: 201.
(6) المصدر نفسه، ص: 201.

ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس، إذ كان يجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلق في المساجد، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشىء المدرسة أو واقفها مدرساً لها، ويُحدد في الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النورية بالموصل، حيث حدد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية[1]، وكذلك في المدرسة العصرونية بدمشق والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم[2].

وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصص للحلقة أو المدرسة، وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي بوفرة ما يناله منسوبوها من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزية بالموصل والحلاوية بحلب والنورية الكبرى في دمشق[3] وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغنى مخصصاتها[4]. كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها وبالأخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغرباء والفقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من مكملات المدارس: إنشاء مرافق تُلحق بها تخصّص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده في دمشق من التسهيلات المغرية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولاسيما لحفاظ كتاب الله ﷻ، والمنتمين للطلب. . .وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المُعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها[5] وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يسدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات ما يأتي:

ـ أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى والعمل بما يعمل، وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه[6].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 202.
(2) المصدر نفسه، ص: 202.
(3) المصدر نفسه، ص: 204.
(4) المصدر نفسه، ص: 204.
(5) الرحلة، ص: 227، 228، الحياة العلمية، ص: 205.
(6) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 68، ابن جماعة.

ـ أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لابد لها، ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان[1].

ـ كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يُتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويُضيّع الأوقات ويؤذي المعلم[2].

ـ وعلى الطالب أن يلتزم بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه... وذلك ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به[3].

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه، فإن هناك جملة آداب كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ويمكن اختصارها في الأمور الآتية:

ـ من آداب الطالب مع أستاذه إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متطهر البدن والثياب، يستأذنه في الدخول وكذلك في الانصراف، وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس[4].

ـ أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب مصغياً إليه بانتباه، وألا يتشاغل أثناء الدرس ولا يكثر حركة يديه، ولا رجليه ولا يعبث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة[5].

ـ كما يلزم على الطالب أن يُحسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره[6].

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 70، الحياة العلمية، ص: 205.
(2) تعليم المتعلم، ص: 49، الحياة العلمية، ص: 206.
(3) تعليم المتعلم، ص: 75، الحياة العلمية، ص: 206.
(4) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 95.
(5) الحياة العلمية، ص: 207.
(6) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 101، 102.

وإذا ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمين، وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه لفتحه والقراءة فيه[1].

ـ وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه بعد وفاته.. ويستغفر له ويتصدق عنه[2] إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم: المدرس والطالب على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة[3].

3 ـ تعليم الإناث:

بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين، وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن[4]، وحسبنا دليل على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة[5]، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالماً واحداً من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه[6] ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهنّ نشأن في بيوت العلماء، وأنهن درسن على آبائهن أو أحد ذويهن من أولي العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كنّ يستمعن إلى ما كان يُلقى في

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 108.

(2) المصدر نفسه، ص: 90.

(3) الحياة العلمية، ص: 207.

(4) الحياة العلمية، ص: 212.

(5) معجم الأدباء (13/ 76) سير أعلام النبلاء (2/ 556).

(6) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين امرأة من النساء.

منازلهن من دروس، وهو ما أطلق عليه «التعليم داخل منازل العلماء»[1]، فابن عساكر عندما يُترجم لأم أولاده وابنة خالته ـ عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السّلِمّية المتوفاة سنة 564هـ 1168م يقول عنها: أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين بن سهل بن بشر بن أحمد الإسفرائيني المدعوة سِت العجم، والمعروفة بالعالمة الصغيرة، يقول ابن عساكر: سمعت أباها أبا الفرج[2].

كما أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء، حيث كن يترددن لحضور الحِلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنَّ ومعزولة عن أماكن الرجال لا يكون هناك سبيل للاختلاط[3] ولم يكن للمرأة الحق في التعليم فقط بل كان لها أيضاً الحق في نشر التعليم، وقد شاركت المرأة في ذلك وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر لمثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: كانت تعظ النساء في المساجد[4] وممن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة[5]، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصدرت للتدريس في حلب وألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره، واستفتاها في بعض المسائل الفقهية، وكان دائماً يبذل لها ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي[6]، وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث أن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القُرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فاستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يقيم في حلب، فعرفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليّ هذا الخادم، وأيُّ فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن توفيت،

---

(1) الحياة العلمية، ص: 214.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 214.
(3) الحياة العلمية، ص: 215.
(4) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء، ص: 288، الحياة العلمية، ص: 215.
(5) المصدر نفسه، ص: 215.
(6) المصدر نفسه، ص: 216.

وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة (587هـ/ 1191م) ودفن عندها بحلب[1]، وقد تحدث الدكتور محمد بن عزوز عن جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف بنوع من التفصيل.

4 ـ أساليب التقويم:

لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة ـ كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا ـ ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، إشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحاناً، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة ـ كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر ـ وإذا كانت الإجازة إقرار بأن الطالب قد أتم دراسة كتب معينة، أو إقرار له بصلاحيته للتدريس، أو الفتوى بناء على مجهود علمي قام به فهي بذلك تعُد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره فهي أيضاً تُعد من أساليب التقويم، وقد انحصرت أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين: الإجازات العلمية، والألقاب العلمية، كالإمام والحافظ والشيخ والفقيه والمحدث والمقرئ[2].

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، وإن كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي قامت بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُنّية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية[3] في مصر. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية وما يتصل بها من العلوم

---

(1) الجواهر المضيئة (4/ 123 ، 124)، الحياة العلمية، ص: 216.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 220ـ331.

(3) المصدر نفسه، ص: 237.

اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم، حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر[1]، واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا العدّ وتنوُّع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجة واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد وإليك أهم تلك العلوم.

1 ـ العلوم الشرعيّة:

كانت الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعيّة من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول ثم علوم اللغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى سنة (405هـ/ 1058م) إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: «إنه لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون، إذاً لا يصلح أداء عبادة جَهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها»[2]، وهذا رأي ابن جماعة أيضاً عندما قال: «إذا تعددت الدروس قُدِّم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل»[3]، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ ـ علم القرآن: وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي وكان من العلوم التي تُدرّس في دور التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد الزنكي:

---

(1) الحياة العلمية، ص: 237.

(2) أدب الدنيا والدين، ص: 44.

(3) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 35 ، 36.

ـ **عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة** أبو حميد وأبو الأصبغ السماني الإشبيلي المعروف: بأبي الصحّان المتوفى بحلب سنة (560هـ/ 1164م) أستاذ كبير وإمام محقق بارع مجوّد ثقة ولد سنة (498هـ/ 1104م) تنقل بين البلاد طلباً للعلم، ودخل الشام ومات بحلب بعد الستين وخمس مئة[1] وكانت له مصنفات مهمّة في القراءات منها كتاب «الوقف والابتداء» وكتاب: «مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري» الذي قال عنه ابن الجزري: لا يعرف قدره إلا من وقف عليه[2].

ـ **كما برز من مُقرئي العهد الزنكي**: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمّام بن محمد الأزدي المتوفى بالموصل سنة (567هـ/ 1172م)[3] من أهل قرطبة، سكن دمشق والموصل أحد أئمة اللغة والقرآن وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق، تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلق عظيم، قال عنه ياقوت: شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات[4]. وقال الذهبي: وبرع في العربية والقراءات وتصدر فيهما مدة[5].

ب ـ **علم التفسير**: كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذه العهد، وبرز فيه علماء أجلّاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم:

ـ **الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي** المتوفى سنة (565هـ/ 1169م) وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير: «كتاب التفسير الكبير» وينبوع الحياة[6].

ـ **ومن المفسرين المبرزين: علي بن إبراهيم الغزنويّ** المتوفى في حلب (سنة 582هـ 1186م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة (538هـ/ 114م) صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألّف فيها مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب «تقشير التفسير»[7] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة (572هـ/ 1176م)[8].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 240.
(2) غاية النهاية في طبقات القراء (1/ 395).
(3) المصدر نفسه (1/ 395).
(4) معجم البلدان (20/ 14، 15).
(5) المصدر نفسه (20/ 14).
(6) العبر (3/ 53).
(7) كشف الظنون (1/ 466)، الحياة العلمية، ص: 245.
(8) بغية الوعاة (2/ 140)، الحياة العلمية، ص: 245.

ج ـ **الحديث**: ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى أنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق. ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد: اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم، فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه[1]، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ[2]، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق[3]، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م) في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود[4]، كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) مصنفاً جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه: «البحر النوري»[5]، وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية[6]، ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

ـ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف: بابن عساكر الدمشقي، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقلاً.

ـ وممن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى سنة (606هـ/ 1209م)، وقد اشتهر مجد الدين ابن الأثير في علوم عديدة كان منها: علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات هامة كان من أبرزها: جامع الأصول في أحاديث الرسول[7]. ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الحديث

(1) التاريخ الباهر، ص: 165، الحياة العلمية، ص: 248.
(2) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 248.
(3) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 248.
(4) معجم البلدان (13/ 78)، الحياة العلمية، ص: 249.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 249.
(6) الحياة العلمية، ص: 249.
(7) معجم الأدباء (17/ 76)، الحياة العلمية، ص: 252.

ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها، ونبّه على جميع ما يُحتاج إليها منها، ثم قال: أقطع قطعاً أنه لم يُصنّف مثله قط ولا يصنف[1]. وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة (1368هـ/ 1949م) في اثني عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق سنة (1394هـ/ 1974م) في إحدى عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس[2]. وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

د ـ الفقه وأصوله: عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلٌ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة: الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي، ورجحوا بين الروايات وخرّجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم[3]، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة، واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك العلماء[4]:

5 ـ في المذهب الشافعي:

وممن برز في هذا المذهب: الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله ابن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)[5] وقد وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلّم في الخلاف والأصول[6]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل «الكمالية القضوية» وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصصها لتدريس الفقه الشافعي[7].

---

(1) معجم الأدباء (17/ 76)، الحياة العلمية، ص: 252.

(2) الحياة العلمية، ص: 252.

(3) المصدر نفسه، ص: 254.

(4) المصدر نفسه، ص: 254، 255.

(5) المصدر نفسه، ص: 255.

(6) وفيات الأعيان (4/ 242).

(7) طبقات الشافعية (6/ 117، 121)، الحياة العلمية، ص: 256.

ـ ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد: الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري المتوفى سنة (578هـ/ 1182م)[1]، قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعي والخلاف والأصول والتفسير والوعظ أديباً مناظراً[2]، أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير «كتاب الهادي» في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأتِ فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى[3].

ـ **وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً:** الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1189م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: «صفوة المذهب من نهاية المطلب» وهو في سبع مجلدات، وكتاب «الانتصار» لمذهب الشافعي في أربع مجلدات، وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب «الذريعة في معرفة الشريعة» في مجلد واحد، وكتاب «مآخذ النظر» وكتاب «الإرشاد المُغرَب في نصرة المذهب» ولم يكمله، وذهب فيما ذهب له بحلب[4].

ـ **المذهب الحنفي:** وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان بن محمد أبو المفاخر الكُردي الملقب: تاج الدين المتوفى سنة (562هـ/ 1166م)[5]، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة (187هـ/ 803م) وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرّج عليه المسائل[6]، وجمع المسائل التي يتحيَّر في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حِيرة الفقهاء)[7]، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمٰن بن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة (543هـ/ 1148م) الموسوم بالتجريد في كتاب سمّاه «المفيد والمزيد»[8].

ـ ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي المُلقب: بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام (571هـ/ 1175م)[9]، قدم حلب في

---

(1) الحياة العلمية، ص: 256.
(2) المصدر نفسه، ص: 256.
(3) وفيات الأعيان (5/ 196).
(4) الحياة العلمية، ص: 257.
(5) الجواهر المضيئة (2/ 443، 444) الحياة العلمية، ص: 258.
(6) كشف الظنون (1/ 561) الحياة العلمية، ص: 258.
(7) الحياة العلمية، ص: 258.
(8) طبقات الفقهاء، ص: 101، طاش كبرى زاده، الحياة العلمية، ص: 258.
(9) الحياة العلمية، ص: 259.

عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاوية بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة (564هـ/ 1169م)، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير «المحيط» وهو في أربع مصنفات «المحيط الكبير» وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشر مجلدات، والمحيط الثالث، أربع مجلدات، والرابع مجلدين[1].

وممن اشتهر بالفقه الحنفي: الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة (587هـ/ 1191م) قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة (571هـ/ 1175م)، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته[2]، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب «تحفة الفقهاء» وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع فقال الفقهاء في عصره: «شرح تُحفته وزوّجه ابنته»[3] واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام، وكانت تحفظ مصنّف والدها «التُحفة»[4] وكان كتاب «البدائع» أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي: «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»[5].

ـ **المذهب الحنبلي**: وممن برز في المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحرّاني الفقيه الحنبلي، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة (1116 ـ 1117م) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حرّان وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها: «المذهب في المذهب» وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفة سنة (559هـ/ 1164م) بحرّان[6].

ـ **ومنهم**: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام (586هـ/ 1190م)، ولد سنة (498هـ/ 1104م) سمع وأفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة إلى أن مات[7]، وغيرهم.

---

(1) الجواهر المضيئة (4/ 25، 28).
(2) الحياة العلمية، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) كشف الظنون (1/ 371).
(5) شذرات الذهب (4/ 183، 184).
(6) الحياة العلمية، ص: 261.
(7) المصدر نفسه، ص: 263.

لقد ظهر في هذا العهد كبير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي[1]. ولا عجب في ذلك ـ الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء ـ فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم، كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و. . . ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين[2].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع «الفرائض» الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقدّرة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد ﷺ وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه[3]، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّي المتوفى سنة (565هـ/ 1169م) وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض[4].

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخلاف والجدل وصنّفوا فيها المؤلفات الحسنة[5].

وقد جدّ العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلّا وقد عني بدراسة هذه العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين حيث حرص الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وشأنه في هذه

(1) الحياة العلمية، ص: 261.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 263.
(3) الحياة العلمية، ص: 264.
(4) معجم الأدباء (19/ 49)، الحياة العلمية، ص: 264.
(5) الحياة العلمية، ص: 265.

العلوم، واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء وبرز منهم علماء أجلاء خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزني[1].

والرسالة التي نريد أن تصل للقارىء أن النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملاً وليس عسكرياً أو سياسياً كما يظن البعض ممن يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية، أو بحث عميق، ثم يعمّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم وبالتالي يساهمون في تسويق ثقافة مغلوطة عن تاريخ أمتنا ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ومارسوه في دنياهم.

2 ـ العلوم التاريخية والجغرافية:

ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميدانَي الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين آثروا هذا الجانب بتآليف جديدة مهمة، وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة، فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة، حيث وجد المتخصصون ـ بهذا الفرع من العلوم ـ في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له

(1) الحياة العلمية، ص: 268، 316.

أثر في تطور العلوم ونشاطها[1]، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميدانَي الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

ـ **التراجم والطبقات**: يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عني به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس، وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة[2]. ويعُد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف: بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه مُنْصبًا على الحديث، وتراجم العلماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه «تاريخ دمشق» قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب التراجم بعد كتاب «تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة (463هـ/ 1070م) وكان ابن عساكر قد سار على نهجه[3].

ـ وممن برز في الكتابة التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي: أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف: بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب «خريد القصر وجريدة العصر» والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية[4].

ـ **وممن كتب في التراجم**: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني المعروف: بابن الأثير المتوفى سنة (630هـ/ 1233م)[5]، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب «الكامل في التاريخ»، وكتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» وكتاب «التاريخ الباهر في الدولة الزنكية» وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»[6]، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمس مئة ترجمة، واستدرك على ما فاته ممن تقدمه من مؤلفي التراجم وبيّن أوهامهم[7].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 317.
(2) المصدر نفسه، ص: 319.
(3) المصدر نفسه، ص: 320.
(4) المصدر نفسه، ص: 322.
(5) سير أعلام النبلاء (22/ 353، 356).
(6) وفيات الأعيان (3/ 349).
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 324.

ـ **التاريخ المحلي (الخاص)**: تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً من المؤرخين في العهد الزنكي[1] وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار، ومن أبرز ممن كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي:

ـ **ابن القلانسي**: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المتوفى سنة 555هـ/ 1160م[2] العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفاضلها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن ونظم ونثر، ولي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمّر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة (555هـ/ 1160م) وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولابن القلانسي: كتاب «تاريخ دمشق» بدأ به سنة (360هـ/ 971م) وانتهى إلى سنة وفاته (555هـ/ 1160م) وهو أول تاريخ لدمشق صنف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة، فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر به هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عالج فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر[3].

ـ **ومن المؤرخين في التاريخ المحلي**: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة (630هـ 1233م) وقد صنف كتاب «تاريخ الموصل» وهو الموسوم «بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية» وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة (521هـ/ 1127م) حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة (607هـ/ 1210م)[4].

ـ **التاريخ العالمي (العام)**: وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 325.
(2) سير أعلام النبلاء (20/ 388، 389)، الحياة العلمية، ص: 325.
(3) الحياة العلمية، ص: 326.
(4) المصدر نفسه، ص: 328.

مُنذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كِتاب في ذلك العصر «الكامل في التاريخ» لعز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المتوفى سنة (630هـ/ 1233م)، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب، وكان قد ألفه على طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة (628هـ/ 1231م)، وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابه لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألمّت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات[1]، وقد تابع ابن الأثير في كتابه «الكامل» المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة، وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره[2].

ـ **التاريخ المعاصر والمذكرات**: وممن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الشيزري المتوفى سنة 584هـ/ 1180م[3]، وله كتاب «الاعتبار» وهذا الكتاب قلّ أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد، إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي[4].

ـ **وممن كتب بأسلوب المذكرات** العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة 597هـ/ 1201م ومن أهم ما كتب في هذا المجال: «البرق الشامي»؛ وهو أشبه بالمذكرات الشخصية؛ لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي؛ وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام[5].

ـ **الجغرافيا والرحلات** تعدُّ الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل: ابن حوقل، والمسعودي،

(1) الحياة العلمية، ص: 328.
(2) المصدر نفسه، ص: 329.
(3) المصدر نفسه، ص: 330.
(4) المصدر نفسه، ص: 330.
(5) المصدر نفسه، ص: 330.

والمقدسي، والإدريسي وابن جُبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب، أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيراً للخليفة أو السلطان[1]. وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرّون بها ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمرُّ بها[2] فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين[3].

ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ما له صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم: أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي المتوفى سنة 611هـ/ 1215[4] الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ولكنه ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن والحجاز، ومصر، وبلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل: صقليّة، وقد تنقّل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط، بل إنه وثّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره[5]، قال عنه ابن خلكان: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها[6]، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات»[7].

---

(1) التاريخ والمؤرخون العرب، ص: 211، الحياة العلمية، ص: 331.

(2) التاريخ والمؤرخون العرب، ص: 213، 214.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 332.

(4) وفيات الأعيان (3/ 346، 348)، الحياة العلمية، ص: 332.

(5) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، ص: 333.

(6) وفيات الأعيان (3/ 346)، الحياة العلمية، ص: 333.

(7) الحياة العلمية، ص: 333.

3 ـ علوم الرياضيات والفلك:

اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنّفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها وخواصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم، فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كاجوري) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر[1]. وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية، وقد تمثّلت أبرز الجهود في الآتي:

ـ **الرياضيات**: كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما أن هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى: بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى. ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات: كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى سنة (639هـ/ 1242م) ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له، يقول ابن خلكان: كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب الجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه[2]، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول رقم 2753، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه «تسبيع الدائرة» وكيفية اتخاذ ذلك، وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (8/ 987)[3].

---

(1) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص: 61.

(2) وفيات الأعيان (5/ 315)، الحياة العلمية، ص: 336.

(3) تاريخ الأدب العربي (4/ 222، 223)، الحياة العلمية، ص: 337.

ـ **الفلك**: يعرف قديماً بعلم الهيئة وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس، وأطوال البلاد وعروضها، والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء[1] وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه ـ أيضاً ـ مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها بعضها من بغداد، وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا[2]، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقاص[3]، ويذكر طوقان أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة (1052هـ/ 1624م) في هذا المجال[4]. وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد الزنكي[5].

4 ـ علوم الطب والصيدلة:

ـ **الطب**: علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة أنه يصح ويمرض لحفظ الصحة وإزالة المرض، وفائدته بيّنة لا تخفى وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً: قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: العلم عِلمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان[6]. وقد تقدم وارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته، ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراراً حتى العصر الحاضر، وممن برز في هذا الميدان: الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة (570هـ/ 1174م)[7]، الذي اشتهر بالتدريس

---

(1) الحياة العلمية، ص: 339.
(2) المصدر نفسه، ص: 339.
(3) الرقّاص: أو رقّاص الساعة، يسمى باسم البندول.
(4) تراث العرب العلمي، ص: 398.
(5) الحياة العلمية، ص: 341.
(6) مفتاح السعادة (1/ 303)، الحياة العلمية، ص: 342.
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 343.

بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب[1]، وممن اشتهر بالطب في هذا العهد: أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي المتوفى سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (1179 ـ 1180م)[2]، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول، وعُمّر ابن البذوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي[3]، ولابن البذوخ من الكتب الطبية « شرح كتاب الفصول لأبقراط» وشرح كتاب «تقدمة المعرفة لأبقراط» أيضاً، وله كتاب «ذخيرة الألباء» و«المفرد في التأليف عن الأشياء» وله حواشي وضعها على كتاب «القانون لابن سينا»[4].

ـ **الصيدلة**: ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب «النبات» وبعلمَي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء[5]، ونظراً لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى: رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة، حتى يحولوا دون غش الدواء[6]، وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسب معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية «الصيدلة» كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيبعة على الطبيب ابن البُذوخ المغربي المتوفى سنة (575هـ أو 576هـ/ 1179م ـ 1180م)[7]، كان خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 343.
(2) المصدر نفسه، ص: 343.
(3) المصدر نفسه، ص: 343.
(4) المصدر نفسه، ص: 343.
(5) تاريخ العلوم عند العرب، ص: 294، الحياة العلمية، ص: 345.
(6) نهاية الرتبة، ص: 42 للشيرزي، الحياة العلمية، ص: 345.
(7) الحياة العلمية، ص: 346.

يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها[1]، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المتوفى سنة (610هـ/ 1213م) في كتابه «المختارات في الطب» كثيراً من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة، وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها[2].

لقد ركزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها: الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسرّية الهدّامة، والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية، لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد، كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافيا، كما قُدّمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصّة، والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر[3].

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين:

قال عنه الذهبي: هو الإمام العلاّمة الحافظ الكبير المجوّد، محدّث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب «تاريخ دمشق»[4]، وهو علي بن الشيخ أبي محمد الحسن ابن هبة الله ابن عبد الله بن الحسين[5]، صنّف الكثير ـ من الكتب ـ وكان فهماً حافظاً متقناً ذكياً بصيراً بهذا الشأن، لا يُحلّقُ شأوه ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه[6]، كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان

(1) عيون الأنباء، ص: 628، الحياة العلمية، ص: 346.
(2) المختارات (2/ 210، 336).
(3) الحياة العلمية، ص: 346.
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 554).
(5) المصدر نفسه (20/ 555).
(6) المصدر نفسه (20/ 556).

كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار. . ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة[1]، وقد لزم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصفّ الأول إلا من عذر، والاعتكاف في رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، وقد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عرضت عليه وقلّة التفاته إلى الأمراء، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم[2].

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

ألا إنَّ الحديث أجلُّ علم ... وأشرَفُهُ الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوع منه عندي ... وأحسنه الفوائدُ والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئاً ... تحقّقُهُ كأفواه الرّجال
فكن يا صاح ذا حِرْصٍ عليه ... وخذه عن الشيوخ بلا مَلالِ
ولا يأخُذْهُ من صُحُفٍ فترمى ... من التصحيف بالداء العضال[3]

ومن شعره أيضاً:

أيا نفس ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي وماذا الغزلْ
تولّى شبابي كأن لم يكن ... وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غِرّةٍ ... وخطبُ المنون بها قد نَزَلْ
فيا ليت شعريَ ممن أكون ... وما قدّر الله لي في الأزل[4]

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم، حافظ متقن ديّن خيّر، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط رحل في طلب الحديث، وتعب في جمعه، وبالغ في الطلب[5]. وقال ابن النجار: إمام المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان وبه ختم هذا الشأن[6]. وقال السيوطي: الإمام الكبير، حافظ الشام، بل حافظ الدنيا، الثقة الثبت الحجة، ثقة الدين. . وكان من كبار الحفّاظ المتقنين، ومن أهل

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 562).
(2) المصدر نفسه (20/ 565).
(3) المصدر نفسه (20/ 569).
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 570).
(5) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (1/ 59).
(6) المصدر نفسه (1/ 59).

الدين والخير، غزير العلم، كثير الفضل، جمع بين معرفة المتن والإسناد[1] وقال عنه السبكي: سمع الحديث وعمره ست سنين، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة وجمع، وكتب الكثير في العراق وخراسان وأصفهان وغيرها، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائه[2].

1 ـ مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معاضدته على الوحدة والجهاد، حيث اندفع يطلب منه إلى التطبيق العملي في تأليف «الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد» قال ابن عساكر: وأحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجلاء[3].

وكان هدف ابن عساكر هو تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك والقيام بواجب الوقت، وهو الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي، وبسبب قناعة آل زنكي بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكن ناجحة مؤثرة إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين، وقال في مقدمته: . . . فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد[4] وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها في توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة؛ لتحريض المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي[5] ومن هذه الأحاديث:

ـ سُئل رسول الله ﷺ، أي الإيمان أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ﷻ**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله ﷻ**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[6].

ـ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله وجهاد في سبيله**» قلت: يا رسول الله فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمناً**» قال: فإن لم أجد؟

---

(1) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (1/ 60).

(2) طبقات السبكي (4/ 273).

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 102.

(4) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 108.

(5) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 103.

(6) مسلم رقم: 83.

قال: «**تعين ضائعاً أو تصنع لأخرق**» قال: فإن لم أستطع؟ قال: «**تكف أذاك عن الناس فإنها تصدق بها عن نفسك**»[1].

ـ قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحب إلى الله ﷻ؟ قال: «**أن تصلي الصلوات لمواقيتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» ولو استزدته لزادني[2]. وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر أن يذكّر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل الله، فمثلاً في الحديث الحادي عشر قال الرسول ﷺ: «**يا أبا سعيد الخدري، من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة**» قال: فعجب لها أبو سعيد، قال: أعدها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» قال: وما هي يا رسول الله قال: «**الجهاد في سبيل الله** ﷻ»[3].

ـ وفي الحديث الثاني عشر: قال الرسول ﷺ: «**في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»[4]. وهناك الكثير من الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر فهي لا تدعو ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله.

ـ كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وهو على ذلك**»[5]. كما أورد أحاديث في الرباط في سبيل الله، مثلاً كالحديث الواحد والعشرين.

ـ قال رسول الله ﷺ: «**كل ميت يختم على عمله، إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة**»[6].

ـ وفي الحديث الثالث والعشرين قال رسول الله ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**»[7]. كما ذكر الخيل وضرورته في القتال، مثلاً في الحديث السابع والعشرين.

---

(1) البخاري رقم: 2518.

(2) صحيح ابن حبان رقم: 1476، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 111.

(3) مسلم في الإمارة رقم: 1884.

(4) البخاري رقم: 2790.

(5) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله (6/ 11، 12).

(6) سنن سعيد بن منصور، رقم: 2414، قال الترمذي: حسن صحيح.

(7) البخاري رقم: 2892.

ـ قال الرسول ﷺ: «**من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بِوَعده، فإنَّ شِبَعه ورِيَّه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة**»[1].

ـ وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال الرسول ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»[2].

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة في الحديث التاسع والعشرين.

ـ مثلاً يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله**»، قال: «**ارموا واركبوا وإن ترموا خير من أن تركبوا**»[3]. وليس ذلك فقط، بل وذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام.

ـ قال رسول الله ﷺ: «**من تقلد سيفاً في سبيل الله قلده الله ﷻ يوم القيامة وشَاحين من الجنة لا تقوم لهما الدنيا وما فيها**»[4]. وفي أحاديث أخرى ساوى بين الإنفاق في الحج والإنفاق في سبيل الله في الحرب، مثلاً في الحديث الثلاثين: قال رسول الله ﷺ: «**النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة**»[5].

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر نلاحظ أنه اختارها بدقة كبيرة من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد، وبصورة عامة فهو اختار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والمرابطة في سبيل الله.. إلخ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبين.

إن تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين، كتحالف ابن عساكر ونور الدين

---

(1) البخاري رقم: 2853.

(2) البخاري رقم: 2887.

(3) صححه الحاكم (2/ 86) ووافقه الذهبي.

(4) حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبد الرحْمن البالسي، المجروحين (2/ 139).

(5) إسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط، التاريخ الكبير (3/ 63).

خير مثال على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين[1].

2 ـ تأليف ابن عساكر فضائل المدن:

ووجد ابن عساكر أن استمرارية الغزو الصليبي للشرق الإسلامي لا بد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده، ولذلك أكّد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث التي ذكرها والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين، وليس ذلك فحسب وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك منها «فضائل القدس» و«فضائل عسقلان» و«فضائل المدن الإسلامية» و«الزهادة في بذل الشهادة»، وغيرها من الكتب التراثية العديدة التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي التي لا بد من التشبث بها والدفاع عنها[2]، ولم يكن ابن عساكر الوحيد مَن ألف في فضائل المدن الشامية آنذاك، بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب، مثل «فضائل الشام» للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت562هـ) و«فضائل الشام» للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت643هـ)، وكتاب «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» للفقيه عز الدين السلمي (ت660) وغيرهم الكثير[3]، وذلك لأن الغزو الصليبي ـ كما أشار السلمي وابن عساكر ـ لم يستهدف الإسلام كفرد أو عقيدة، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه المتكامل، ووجد أولئك الفقهاء أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها، ولربما تغيير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التاريخ لها، وتدوين أخبارها[4].

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تمّ تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمْقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 108.

(2) المصدر نفسه، ص: 108.

(3) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 399).

(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 108.

والاستتمام ليلمّ بمطالعة ما تيسَّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام[1]، مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته «دمشق» وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود[2]. وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدموا التراث كوسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر الذي يحيق بها، فقد استخدم التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام التي أثقلها الضعف والصراع السياسي والديني[3].

3 ـ ابن عساكر يحث نور الدين على مواصلة الجهاد:

عرف عن ابن عساكر تديُّنه وتعففه واعتكافه وبعده عن إغراءات الدنيا وعزوفه عن المناصب، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الثقافي والسياسي، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أعفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب، وبعد فتح مصر في أن يوجه إلى السلطان قصيدة يوجهه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً ... للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد ... وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته ... حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة ... عِلِيَّةً فأقصد العالي من القرب
فالجد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والإدراك في الطلب
وطهِّر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والإشراك والصلب

(1) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة، ص: 4.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 79.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 109.

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب[1]

كان نور الدين محمود قائداً متميزاً يملك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة، فقد جعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير، فبمجرد مجيئه للحكم، بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة، فأقام صروحاً كبيرة فبنى المستشفيات وأقام دار العدل واهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها، ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين[2]، واهتم نور الدين بالبناء الداخلي، وكان العلماء عوناً له على ذلك، واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، حتى أنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم، فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر، فعندما أيقن الصليبيون أن وجودهم أصبح مهدداً، فتوجهوا بأنظارهم صوب مصر وهيؤوا لذلك، فأدرك القائد نور الدين ذلك، فتدخل على هذه الجبهة بنظرة استراتيجية وأرسل ثلاث حملات متواليات تمكنت من إحباط خططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر، ومن ثَمَّ إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيدها مع الشام ـ كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ومحفزاً له وداعياً للجهاد والتحرير، وكان يقول داعياً للوحدة: لم يمكّن الله أهل فرقة على جماعة أبداً[3]، وخطط نور الدين لجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام والجزيرة ومصر، والمغرب، وبلاد إسلامية أخرى، وبات متيقناً بالنصر، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجاراً بحلب يعرف: «بالأختريني» من ضيعة قريبة من حلب تعرف «بأخترين» اشتهر ببراعته ودقة صنعه التي لا تجارى، فأمره أن يصنع منبراً لبيت الله المقدس، ولبى الرجل ما ندب له، وبذل النجارون الصناع في صناعته سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين[4]، واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصالحه، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعة للحكام المسلمين، ومُنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ويندفع في المعارك، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من

(1) الخريد للعماد الأصفهاني (1/ 277)، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 53.

(2) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 46.

(3) المصدر نفسه، ص: 48.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن دوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 48.

أعداد الجند المحترفة، وكان ذلك كله، نتيجة تعبئة مشاعر الناس وتحريضهم على الجهاد، وندبهم إلى حمل السلاح، وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ، ويأتي ابن عساكر كبير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء. وفي هذا المجال لا بد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان العراق وبلاد الشام أو مصر، بل تعداه إلى سكان المغرب والأندلس، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج فيجاهدون ويحجون أو يحجون ويجاهدون، أو يجاهدون، وتكتب لهم الشهادة، وكلنا يعلم أن أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة[1]، ولقد تحدث عن المغاربة والأندلسيين ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء وعدد من مؤرخي تلك الفترة وما بعدهم منهم: ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، وابن جبير في «رحلته»، والمقري في «نفح الطيب»، ومحمد بن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» والسبكي في «الطبقات»، وكذلك ابن سعيد المغربي في «المغرب في حلي المغرب»، وينقل عنه المقري، كما ترجم ابن عساكر لعديد من العلماء والقراء والشعراء المغاربة والأندلسيين الذين قدموا إلى دمشق[2].

4 ـ وفاة ابن عساكر:

توفي ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين، حادي عشر الشهر، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين، ودفن عند أبيه في مقبرة باب الصغير[3].

رحم الله ابن عساكر فقد كان له دور هام في إيجاد صحوة إسلامية ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين، وقد تمكن نور الدين بفضل الله، ثم جهود العلماء والمخلصين من أبناء الأمة بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائدياً، على نحو أدى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة، ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي[4].

---

(1) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 48.

(2) المصدر نفسه، ص: 48.

(3) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق، ص: 70.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 276، 277.

المبحث السابع
الإمام عبد القادر الجيلاني وجهوده في الدعوة الشعبية والإصلاح العام

الدعوة الشعبية والإصلاح العام:

من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله تعالى، وفي هذا المبحث سنوضح بإذن الله تعالى جهود عبد القادر الجيلاني في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين محمود، وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، لقد كانت عامّة الجماهير في حاجة شديدة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره لكي يؤثر في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته[1]، وتوقظ في النفوس الإيمان وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلوّ الهمّة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله وتدعو إلى التوحيد الكامل، والدين الخالص[2].

ولقد وجد هذا المصلح الشعبي في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ظهر في بغداد في آخر القرن الخامس، وتسلّم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله، وأثر في العالم الإسلامي تأثيراً كبيراً[3]، واستطاع أن يؤسس مدرسة ساهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية، والاقتصادية والاجتماعية ساهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية[4]، فقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد ـ وقد فصّلت ذلك في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة الغزو الصليبي». وكان الرجل المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية وإلحاد الباطنية، وانحراف العلماء[5]، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الغزالي وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء.

---

(1) رجال الدعوة والفكر (1/ 235).
(2) المصدر نفسه (1/ 237).
(3) المصدر نفسه (1/ 239).
(4) لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد، ص: 325.
(5) رجال الفكر والدعوة (1/ 235).

يقول الدكتور ماجد الكيلاني: والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبَّقه عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة المريدون[1]. وتعتبر شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدرسته وتعاليمه ذات أثر ملموس في نهوض الأمة في عهد الزنكيين الأيوبيين ولذلك بإذن الله تعالى سنسلط الأضواء على شخصيته ومدرسته وتعاليمه.

أولاً: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه:

1 ـ اسمه:

هو عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ويلقب أيضاً: بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]. وبعض الناس ينكر نسبته إلى علي بن أبي طالب[3]، ويبدو أن الصحيح صحة انتسابه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لضعف أدلة الطاعنين وندرتهم وقوة أدلة المثبتين وكثرتهم[4].

2 ـ كنيته ولقبه:

تكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته: أبو محمد، ونسبته: الجيلاني أو الجيلي[5]. وأما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبياناً لعلوّ منزلتهم، فمن الألقاب التي أُطلقت عليه لقب: «الإمام»، أطلقه عليه السمعاني فقال: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب[6]. ومنها لقب: «شيخ الإسلام» أطلقه عليه الذهبي[7].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، نقلاً عن لا طريق غير الجهاد، ص: 339.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 439)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 27.

(3) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 290).

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني، ص: 28.

(5) المصدر نفسه، ص: 28.

(6) المصدر نفسه، ص: 28.

(7) سير أعلام النبلاء (20/ 439).

3 ـ ولادته:

ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها: إكيل وكيلان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني كيلاني، وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة[1] وقيل: إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية[2].

4 ـ طلبه للعلم ورحلاته:

رحل الشيخ عبد القادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان إلى بغداد حيث دخلها سنة (488هـ) وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة، والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم، إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه: الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحيي الدين[3]، وكما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بأنه: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف[4]، وقد أمضى في طلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة 520هـ[5]. وكان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم[6]، وقد نقل ابن رجب ما يصوّر لنا تلك المعاناة من كلام الشيخ نفسه حيث يقول: وكنت أقتات الخرنوب[7] والشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها يوماً من شدة الجوع لعلي أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك، فأتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلّا وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءً، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه، وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي، فقلت: ما هذا؟ وقلت: ما ههنا إلّا الله أو ما قضاه عليّ من الموت، إذ التفت إليّ الأعجمي فرآني فقال:

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 439).
(2) بهجة الأسرار للشطنوفي، ص: 88.
(3) سير أعلام النبلاء (20/ 439).
(4) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 290).
(5) المصدر نفسه (1/ 291).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 32.
(7) الخرنوب: شجر بري ذو شوك ذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

بسم الله يا أخي، فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً، فأخذ يسألني ما شغلك، ومن أين أنت وبمن تُعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، فقلت: أنا هو، فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلّا مما كان لك معي، وقد حلّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي، فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجّهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا معتذر إليك، فسكّنته وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف[1].

5 ـ شيوخه: ونتحدث عن بعضهم:

أ ـ أبو سعيد: المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة، تفقه بالقاضي أبي يعلى وبنى مدرسة باب الأزج، درّس بها بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن طوّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة (513هـ).

ب ـ أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي: الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة (431هـ) وكان يتوقد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير[2]. وقد نقل عنه الذهبي قوله: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط، ولا عاشرت إلّا أمثالي من طلبة العلم، وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأَهِلَّة الخفيَّة إلّا أن القوة ضعيفة[3]. قال ابن الجوزي: كان ابن عقيل ديّناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يُتعجب منه، وكان كريماً ينفق ما يجد، وما خلّف سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة 513هـ[4]، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل: حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد ثم إلى حلب، فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع

(1) الذيل عن طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 298).
(2) سير أعلام النبلاء (19/ 428).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 38.
(4) سير أعلام النبلاء (19/ 446).

فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصلّ بنا هذا الشهر، ففعلت، فقالوا: لإمامنا بنت فهل ترغب في الزواج منها، فقبلت، فتزوجت بها وأقمت معها سنة، وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها، فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت: أنت هو، والله لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم ارزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليَّ، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد[1].

ج ـ **حماد بن مسلم الدباس**: كان الشيخ عبد القادر من تلامذته[2]، وقد أثنى ابن تيمية على الجيلاني وشيخه حماد، حيث قال: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة ﷺ: بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله ﷻ سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق[3].

د ـ **أبو محمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج**: الشيخ البارع المحدث المسند بقية المشايخ، كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب كان صدوقاً ألَّف في فنون شتَّى وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته، ثقة مأمون عالم صالح، ولد سنة (417هـ) وتوفي سنة (500هـ)[4].

هـ ـ **أبو عبد الله يحيى بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي**: كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة (453هـ) وتوفي سنة 531هـ[5]. هؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته[6].

6 ـ مكانته العلمية:

ويكفي في معرفة مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[7]. ثم شهد له بأنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء، فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[8]. وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي، قال: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة (561هـ) فإذا الشيخ الإمام محيي

(1) سير أعلام النبلاء (19/ 447).
(2) المصدر نفسه (19/ 449).
(3) فتاوى ابن تيمية (10/ 455).
(4) سير أعلام النبلاء (19/ 228).
(5) المصدر نفسه (20/ 6).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني، ص: 43.
(7) فتاوى ابن تيمية (10/ 463).
(8) المصدر نفسه (10/ 488).

الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء[1]. وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم يقول ابنه عبد الوهاب: كان والدي رحمه الله يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها (521هـ) وآخرها (561هـ) ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته 33 سنة أولها (528هـ) وآخرها (561هـ)، وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة[2].

وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله: جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ، وصورتها: ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بدَّ له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فيما يفعل من العبادات؟ قال: فأتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلي له المطاف ويطوف أسبوعاً ـ أي سبعاً ـ وحده وتنحل يمينه، قال: فما بات المستفتي ببغداد[3]، وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة، قال: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة[4]، ويقول ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[5].

ثانياً: منهجه في توضيح العقيدة:

بيَّن رحمه الله عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[6] ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها ـ خصوصاً قضايا العقيدة ـ يمكن تلخيصه فيما يلي:

---

(1) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 294).
(2) بهجة الأسرار، للشطنوفي، ص: 95.
(3) الذيل على طبقات الحنابلة (1/ 294).
(4) المصدر نفسه (1/ 290).
(5) المصدر نفسه (1/ 291)، الشيخ عبد القادر، ص: 69.
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 442)، الشيخ عبد القادر، ص: 62.

1 ـ **عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة**: تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان[1]: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع[2].

2 ـ **حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ**: يدل على ذلك قوله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله ﷻ[3].

3 ـ **يذكر الشيخ عبد القادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة مثال ذلك قوله**: قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً وحشرنا في زمرته[4] ويقول: عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة[5].

4 ـ **رفض تأويل المتكلمين**: وهذا واضح من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول في صفة الاستواء: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرض لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء الغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك[6].

5 ـ **الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من إثبات أو نفي**[7]: وهذا واضح جلي في قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ[8].

6 ـ **إعراضه عن علم الكلام**: من قواعد منهج الشيخ عبد القادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القول، ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلّا ما كان في كتاب الله ﷻ أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم عن

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 70.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 72.
(4) الغنية للجيلاني (1/ 55).
(5) الفتح الرباني، المجلس العاشر، ص: 35.
(6) الغنية للجيلاني (1/ 56).
(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 78.
(8) الغنية للجيلاني (1/ 57).

التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في صفات الرب ﷻ: كيف ولم؟ ولا يقول ذلك إلا شاك[1].

فهذه هي أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في إيضاح العقيدة[2].

ثالثاً: من آراء الشيخ عبد القادر الجيلاني الاعتقادية:

1 ـ الإيمان:

قال الشيخ عبد القادر: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان[3]. وقال في موضع آخر: الإيمان قول وعمل: فالقول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها[4].

ـ **زيادة الإيمان ونقصانه**: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[5]، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: 31][6].

ـ **الفرق بين الإيمان والإسلام**: قال الشيخ عبد القادر: وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: 14]، وبحديث مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان[7].

2 ـ حكم مرتكب الكبيرة:

نَحَى الشيخ عبد القادر منحى أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الملة وأنه فاسق بمعصيته واقع تحت المشيئة في الدار الآخرة إن شاء الله عذّبه، وإن شاء

(1) الغنية للجيلاني (1/ 56).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 82.
(3) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 89.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 92.
(7) البخاري رقم: 50 (1/ 62).

رحمه، وأنه لا يكفر بها إذا مات على التوحيد[1] حيث يقول: ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها بل يخرجه منها؛ لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا يستوفي منه بقدر كبيرته وجريمته ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها[2]. ويقول في موضع آخر: ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص، بل يرد علمه إلى الله ﷻ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه وأدخله النار فلا يدخل بين الله وبين خلقه ما لم يخبرنا الله بمصيره[3].

3 ـ توحيد الربوبية:

أشار الشيخ عبد القادر إلى أن معرفة الله فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها، وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية[4]. قال رحمه الله: النفس بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية[5]، وأشار إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية[6] فيقول: أما معرفة الصانع ﷻ بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، [الإخلاص: 2 ـ 4] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ندّ ولا مشير[7]. والمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله ﷻ لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوى يقينه في خالقه ﷻ[8]، والشيخ عبد القادر رحمه الله يؤكد هذا المعنى في مكان آخر فيقول: استدل بصنعة الله عليه، تفكر في الصنعة، وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن الموقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتان، فيرى بالعينين الظاهرتين من خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السمٰوات[9]. ويقول كذلك: أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات، فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن في ذلك دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم.

(1) الغنية للجيلاني (1/ 65) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 105.
(2) المصدرنفسه (1/ 65)، المصدر نفسه، ص: 105.
(3) المصدر نفسه (1/ 65).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(5) فتح الغيب للجيلاني، المقالة العاشرة، ص: 21.
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(7) الغنية للجيلاني (1/ 54).
(8) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(9) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثالث، ص: 16.

4 ـ توحيد الألوهية:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني لهذا النوع من التوحيد، ذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام معتقداً بقلبه وحدانية الله[1]، فيقول: والذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى[2]، وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما حذّرهم منه وخوّفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في معصيته[3] فيقول: وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب فحذّر وأنذر وخوّف وزجر إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم[4]. وبيّنَ الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان، فيقول: إذا قلت: لا إلٰه إلّا الله فقد ادعيت. فيقال لك: ألك بينة؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، والتسليم إلى القدر، هذه بيّنة الدعوى[5].

5 ـ شروط قبول العبادة:

وقد قرّر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توفر الإخلاص والمتابعة في العبادة، وبيّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين[6]، يقول: إذا عملت هذه الأعمال ـ يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي ـ لا تقبل منك إلا بالإخلاص، فلا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة[7].

ويقول في موضع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات، من الصلاة والأذكار وغير ذلك مما سنذكر ـ إن شاء الله ـ لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[8]. ثم يستشهد على وجوب الإخلاص بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، مقالة 74، ص: 113.
(2) الشيخ عبد القادر، ص: 128.
(3) الغنية للجيلاني (1/ 2).
(4) عبد القادر الجيلاني للقحطاني، ص: 129.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 146) عبدالقادر الجيلاني، ص: 129.
(6) الفتح الرباني المجلس الثاني، ص: 10.
(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 134.
(8) الفتح الرباني للجيلاني، ص: 134.

ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]. ثم ساق بعض أقوال أهل العلم في تعريف الإخلاص فنقل عن سعيد بن جبير قوله: الإخلاص أن يخلص العبد دينه لله وعمله لله تعالى، ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً، كما نقل عن الفضيل بن عياض قوله: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[1]، وقد حذَّر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر في جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق ﷻ. ثم ساق الأدلة على تحريم الرياء منها: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: 4-7]، وبوصفه ﷻ للمنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾ [النساء: 142، 143] كما استشهد من السنة بأحاديث صحيحة منها قوله: «**يلقى الرجل في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها فيقال له: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**»[2].

6 ـ من أنواع العبادة:

أ ـ الدعاء: من أعظم أنواع العبودية الدعاء والالتجاء لله تعالى؛ لأن معاني العبادة والخضوع والتذلل والفقر والاحتياج تبدو واضحة جلية في الدعاء، والدعاء لا يكون إلا لله وحده، ولذلك توعَّد الله المستكبرين عن دعائه بالدخول في النار وبئس القرار[3]، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60][4]، وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الآداب التي يجب مراعاتها عند الدعاء، فقال: والأدب في الدعاء أن يمد يديه ويحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته[5].

ب ـ التوكل: وهو أصل من أصول العبادة وهو من سمات المؤمنين الصادقين قال ﷻ:

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 66)، الشيخ عبد القادر، ص: 134.
(2) الغنية للجيلاني (2/ 67)، الشيخ عبد القادر، ص: 135.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 138.
(4) مسلم رقم: 2989، الغنية للجيلاني (2/ 68).
(5) الغنية للجيلاني (1/ 40).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2] وقد عرَّف الشيخ عبد القادر حقيقة التوكل بقوله: حقيقته الإخلاص، وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال، وكذلك التوكل هو الخروج من الحول والقوة مع السكون إلى رب الأرباب[1]، وهو يعني بذلك عدم الاعتماد على حول الإنسان وقوته وإمكانياته وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبارك وتعالى وحوله وقوته ولكن لا يعني بذلك ترك الأسباب وعدم الأخذ بها، بل يدعو إلى إعطاء الأسباب حقها وذلك بالأخذ بها وعدم تجاهلها، ثم التوكل بعد ذلك على الله سبحانه حيث يقول: أعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل[2].

وذلك أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ﷻ، فإن الله ﷻ كما أمر بالاعتماد عليه والتوكل عليه وحده أمر بالأخذ بالأسباب فقال مخبراً عن عيسى ابن مريم وهو يخاطب أمه: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25] إذ كان في قدرته سبحانه أن ينزل الرطب من غير أن تقوم مريم بهز الجذع[3]، وأيضاً أخبر ﷻ أن يعقوب عليه السلام قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]، فمع توكله على الله ﷻ أمر أولاده بالأخذ بالسبب وهو التفرق عند الدخول حتى لا يصابوا بالعين الحاسدة[4]، أو بلفتوا الانتباه عند دخول مصر. وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»[5].

ج ـ **الخوف والرجاء**: وهذان من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأثنى على المؤمن المتحلي بها قال ﷻ في الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، وقال في الرجاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن الخوف والرجاء فقال: من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاؤه قنط، والسلامة في اعتدالهما[6]، وهذا الاعتدال يوافق ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه

---

(1) بهجة الأسرار للشطنوفي، ص: 122.

(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون ص: 167.

(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 141.

(4) المصدر نفسه، ص: 141.

(5) سنن الترمذي رقم: 2519، وقد حسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم: 1068.

(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون، ص: 91.

واحداً[1]، وأما حجم الخوف وقدره فيحدده ابن القيم بأنه: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ويذكر أنه سمع ابن تيمية يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله[2]، وعن الرجاء يؤكد ابن القيم: أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: **الأول**: محبة ما يرجوه، **والثاني**: خوفه من فواته، **والثالث**: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأن الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن[3].

د ـ ما ينقض التوحيد: ولقد دعا الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى التوحيد وحذَّر من الوقوع في الشرك في جملة وصاياه، فقال: وحِّدوا ولا تشركوا[4]، وقال في توجيه آخر: أخلصوا ولا تشركوا وحِّدوا الحق ﷻ، وعن بابه لا تبرحوا سلوه ولا تسألوا غيره، واستعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره[5].

7 ـ توحيد الأسماء والصفات:

وأشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى هذا التوحيد بقوله: انفوا ثم أثبتوا، انفوا عنه ما لا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم[6]، وقال رحمه الله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية إلى علم الله[7]. فاشتمل كلامه رحمه الله على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي:

- إثبات الأسماء والصفات.
- تنزيه الله ﷻ عن مشابهة خلقه.
- الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية[8].

---

(1) مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش (2/ 178).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 144، مدارج السالكين (1/ 511).
(3) الجواب الكافي لابن القيم، ص: 46.
(4) فتوح الغيب، المقالة الثانية، ص: 10.
(5) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع والأربعون، ص: 151.
(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع والأربعون، ص: 62.
(7) الغنية للجيلاني (1/ 57).
(8) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 167.

أ ـ الصفات الذاتية: وهي الصفات المتعلقة بذات الباري سبحانه، ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب ﷻ بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلٰهية ومنها[1]:

ـ **اليدان**: من الصفات الثابتة لله ﷻ وقد أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه، فقال: له يدان وكلتا يديه يمين قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67]، وروى نافع عن ابن عمر ﷺ أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ **يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول: أنا العزيز**»، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط[2].

ـ **صفة القَدَم**: من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله ﷻ، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول: ويضع قدمه في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط[3]، وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها منها عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول: قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض**»[4]. وقد تلقى علماء أهل السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية[5].

ـ **صفة الأصابع**: يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني الأصابع لله ﷻ لورود الأدلة الصحيحة بشأنها، فيقول: وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء[6]. وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله ﷻ من غير تكييف ولا تمثيل[7].

ـ **صفة العلو**: من صفات الكمال للذات الإلٰهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً[8]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت هذه الصفة فيقول: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 180

(2) البخاري رقم 7412، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 180.

(3) الغنية للجيلاني (1/ 55).

(4) البخاري رقم 7339، مسلم رقم 2846.

(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 183.

(6) الغنية للجيلاني (1/ 55).

(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 185.

(8) المصدر نفسه، ص: 187.

محتوي على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5][1].

ب ـ **الصفات الفعلية**: وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه، بحيث إن شاء الرب ﷻ فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب ﷻ على فعلها في أي وقت شاء ومن هذه الصفات:

ـ **الاستواء**: أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل[2]، حيث قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق[3]، وقد استدل رحمه الله على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه[4]، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[5].

ـ **صفة النزول**: من الصفات الثابتة لله ﷻ صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون نزول رحمته وثوابه[6]... فيقول: وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى لا إله إلّا هو له الأسماء الحُسنى لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 54).

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 194.

(3) الغنية للجيلاني (1/ 56).

(4) هذا لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند وإنما ورد في كتب أخرى، رواه اللالكائي رقم: 663 موقفاً عليها.

(5) هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الرأي ومالك.

(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 203.

ادعته المعتزلة، والأشعرية[1]. وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة والتي منها حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟**»[2].

صفة الكلام:

صفة الكلام صفة ذات باعتبار نوع الكلام، وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله ﷻ ومشيئته، فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء يتكلم بصوت يُسمع، يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو أن نكون منهم، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة[3]: يا مبتدع، ما يقدر أن يقول أنا الله إلّا الله، ربنا ﷻ متكلم ليس بأخرس، ولهذا أكّد الله ﷻ الأمر في كلامه لموسى فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 164][4].

8 ـ عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرآن الكريم:

لقد قرّر الشيخ الجيلاني عقيدته في هذه المسألة الهامة من مسائل العقيدة ببيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ حيث يقول: ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ كما قال الله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]، هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67][5].

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول: احترموا كتاب الله وتأدبوا معه هو الوصلة بينكم وبين الله، لا تجعلوه

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 57).
(2) البخاري رقم: 1145، مسلم رقم: 758.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 206.
(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون، ص: 209.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 58).

مخلوقاً، يقول الله ﷻ هذا كلامي، وتقولون أنتم: لا؛ من رد على الله جعل القرآن مخلوقاً كفر بالله وبرىء منه. هذا القرآن المتلو، هذا المقروء، هذا المسموع، هذا المنظور، هذا المكتوب في المصاحف كلامه ﷻ[1].

9 ـ رؤية الله ﷻ عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

ذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة حيث يقول: وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته. قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] قيل: الحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23][2].

10 ـ القضاء والقدر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره، وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور. وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور[3].

11 ـ عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه، فيقول: والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصي والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يُخفف عن المؤمنين برحمة الله. وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان[4]، كما يقرر وجوب الإيمان بمنكر ونكير وأنهما يسألان الميت في قبره. ونؤمن بأن منكراً ونكيراً إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين، ويسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان، وهما يأتيان القبر، فيرسل فيه الروح ثم يقعد فإذا سئل سُلَّت روحه[5]. وقد استدل أهل السنة والجماعة بعذاب القبر ونعيمه بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة منها؛ قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]. وقد فسَّرها النبي ﷺ قال: **«إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن**

---

(1) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر، ص: 41.
(2) الغنية (1/ 55) الشيخ عبد القادر، ص: 241.
(3) الغنية (1/ 65)، الشيخ عبد القادر، ص: 262.
(4) الغنية للجيلاني (1/ 66).
(5) المصدر نفسه (1/ 66).

محمداً رسول الله، فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت». نزلت في عذاب القبر[1].

12 ـ الشفاعة:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بشفاعة النبي ﷺ فيقول: والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عاماً للحساب لجميع أمم المؤمنين وبعد دخولها لأمته خاصة فيخرجون منها بشفاعته ﷺ وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ومن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة في عمره مخلصاً لله ﷻ[2].

13 ـ الحوض:

ويذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن عقيدة أهل السنة هي الإيمان بوجود حوض النبي ﷺ، فيقول: وأهل السنة يعتقدون أن لنبينا محمد ﷺ حوضاً في القيامة يسقى منه المؤمنون دون الكافرين، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق على عدد نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر، أصله في الجنة وفرعه في الموقف[3]. وقد قال رسول الله ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض من ورده** ـ شرب منه ـ **لم يظمأ بعده أبداً، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم**»[4].

14 ـ الصراط:

وأكد الشيخ عبد القادر الجيلاني في تعاليمه على وجوب الإيمان بالصراط فقال: والإيمان بالصراط على جهنم واجب وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار ويجوز من يشاء، ويسقط في جهنم من يشاء، ولهم في تلك الأحوال أنوار على قدر أعمالهم فهم بين ماشٍ وساعٍ وراكب وزحف وسحب[5]. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 71، 72] ووردت أحاديث من السنة تضمنت ذكر الصراط وصفاته وصفة المرور عليه[6].

---

(1) البخاري رقم: 1369، مسلم رقم: 2871.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 69).
(3) المصدر نفسه (1/ 71).
(4) البخاري رقم: 6583، مسلم رقم: 2290.
(5) الغنية (1/ 70).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 371.

15 ـ الميزان:

وردت النصوص الشرعية التي تؤكد وزن الأعمال يوم القيامة، والشيخ عبد القادر يذكر أن الإيمان به هو عقيدة أهل السنة فيقول: ويعتقد أهل السنة أن لله تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات يوم القيامة له كفتان ولسان: وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك، فقالت: إن معنى الميزان: العدل دون موازنة الأعمال، وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكذيبهم قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 6-9]، والعدل لا يوصف بالخفة والثقل[1]. وقال رسول الله ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[2].

هذه بعض المسائل العقدية التي كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يربي عليها تلاميذه ويبثها في الجمهور العام في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وكان لها تأثير كبير في رجوع الناس إلى الله والالتزام بدينه، وساهمت على العموم في نهضة الأمة حتى استطاعت التصدي للتغلغل الباطني والغزو الخارجي.

رابعاً: البدعة وموقف الشيخ عبد القادر منها:

1 ـ أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما النوران اللذان يضيئان للإنسان طريقه وهو يعبر دروب الحياة ومجاهيلها[3]، والشيخ عبد القادر يقرر ذلك في قوله: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة[4] ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً[5].

2 ـ ذم البدع والتحذير منها:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يحذر دائماً من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا

(1) الغنية للجيلاني (1/ 72).
(2) البخاري رقم: 6406، مسلم رقم: 2694.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 411.
(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس التاسع والثلاثون، ص: 128.
(5) المصدر نفسه، ص: 128.

تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا[1] ويقول في موضع آخر: اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا[2]. وبَيَّن أن أساس الخير في متابعة النبي ﷺ، فيقول: أساس الخير متابعة النبي ﷺ في قوله وفعله[3]، ثم بين أن الأولى للمؤمن العاقل أن يتبع السنة فيقول: والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يبتدع ولا يغالي ويعمق ويتكلف لئلا يضل ويزل ويهلك[4].

وقد استدل أهل السنة والجماعة على ذم البدع ومحاربتها بالأدلة الكثيرة من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]. وقال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[5]، وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً: فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله ﷺ والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين. ثم بعد هذا التعريف لأهل السنة والجماعة يحذر من أهل البدع فيقول: وألا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم؛ لأن الإمام أحمد رحمه الله قال: من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه[6]، ولقول النبي ﷺ: «**أفشوا السلام بينكم تحابوا**»[7]. ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور ولا يصلي عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله ﷻ معتقداً ومحتسباً بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير[8].

وقال: واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها؛ فعلامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الزنادقة: تسميتهم أهل الأثر بالحشوية. وعلامة القدرية: تسميتهم أهل الأثر مجبرة. وعلامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة: تسميتهم أهل الأثر ناصبة، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا اسم لهم، إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث، ولا يلتصق بهم ما لقبَهم به أهل البدع، كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً، وشاعراً، ومجنوناً، ومفتوناً، وكاهناً، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً بريئاً من العاهات كلها[9].

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثانية، ص: 10.
(2) الفتح الرباني للجيلاني المجلس السابع والأربعون، ص: 151.
(3) الغنية للجيلاني (1/ 79).
(4) مسلم رقم: 1718.
(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 431.
(6) مسلم رقم: 54.
(7) الغنية للجيلاني (1/ 80)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص431.
(8) الغنية للجيلاني (1/ 80)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 432.
(9) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 477.

3 ـ طاعة أولي الأمر:

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني طاعة أولي الأمر حيث يقول: وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم والصلاة خلف كل بر منهم وفاجر، والعادل منهم والجائر ومن ولّوه ونصبوه واستنابوه[1].

خامساً: مفهوم التصوُّف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوُّف يجمع بين العلم الشرعي المؤسَّس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع[2]، فقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: 17] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله ﷻ في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27][3] وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة، عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية[4].

1 ـ تعريف التصوف عند الشيخ:

قال: التصوف: هو الصدق مع الحق وحسن الخُلقُ مع الخَلْق[5]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق، وملازمة الإيثار ومجانبة الادّخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا. وبيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على ثمان خصال:

أ ـ السخاء: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام الذي اشتهر صلوات الله وسلامه عليه بذلك.

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 507.

(2) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السادسة والثلاثون، ص: 65.

(3) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر، ص: 41.

(4) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السابعة والخمسون، ص: 166.

(5) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 71).

ب ـ **الرضا**: ويجعل القدوة فيه إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وكأنه بهذا يشير إلى أنه هو الذبيح وأن استسلامه لأمر ربه ورضاه كان أبرز صفاته وهذا القول مرجوح عند أهل السنة والجماعة، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله الخلاف في هذه المسألة ورجَّح بالأدلة القاطعة والبراهين القوية أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام[1].

ج ـ **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخُلُق العظيم أيوب عليه السلام فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]. وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده[2].

د ـ **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام، وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالأسباب، وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتعل بالشيب رأسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 38][3].

هـ ـ **التصوُّف**: والقدوة في ذلك موسى بن عمران عليه السلام. ولعله أراد بذلك الإشارة إلى الاصطفاء الذي وقع عليه من الله بقوله عز وجل: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

و ـ **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

ز ـ **الفقر**: ولا شك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف وهو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد ﷺ والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة[4].

والصوفي عند عبد القادر الجيلاني هو من تحقق من معاني التصوُّف حتى صار أهلاً

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 39).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 511.
(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون، ص: 166.
(4) الغنية للجيلاني (2/ 160).

لأن يطلق عليه صوفي في وصفه: صوفي مأخوذ من المصافاة يعني: عبد صافاه الله ﷻ، أو من كان صافياً من آفات النفس خالياً من مذموماتها سالكاً لحميد مذاهبه ملازماً للحقائق غير ساكن إلى أحد من الخلائق[1]، ويضع ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: «الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[2] ويقول: الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه ﷻ، وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخُلق وتعفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه ﷻ[3].

2 ـ العوامل التي أدت إلى تصوفه:

هناك عوامل عدة أثّرت في تكوين شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني منها:

أ ـ نشأته في أحضان أسرة صالحة: تتألف من والده الذي كان مشهوراً بالصلاح والعبادة وحسن السيرة، ووالدته فاطمة أم الخير بنت أبي عبد الله الصومعي المعروف بالتقوى والورع، وعمته التي كانت على جانب كبير من الخير والصلاح[4] وقد وصف الشيخ عبد القادر الجيلاني بقوله: أهلّني الله ﷻ ببركات متابعتي للرسول ﷺ وَبِري بوالدي ووالدتي رحمهما الله ﷻ، والدي زاهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله، كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق[5].

ب ـ اتصاله بالصوفية في بغداد: فقد شكّل انتقاله إلى بغداد تطوراً جديداً في حياته لما واجهه من تغيُّر كبير في البيئة العامة والحياة الخاصة حيث اختلط بالعلماء والفقهاء، ومشايخ الصوفية، وذلك في قاعات الدروس ومجالس العلم ووقف على انتماءاتهم ونشاطاتهم وتأثر بذلك تأثراً كبيراً، وقد بدأ وقائع دراسته بدراسة الفقه الحنبلي وقراءة القرآن الكريم ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة التصوف وعلومه، وكان لصحبته للشيخ حماد الدباس الأثر الكبير في تحديد توجيهاته الصوفية[6].

ج ـ عدم ارتياحه إلى سلوك بعض الفقهاء والوعاظ في زمانه والذين كانت تحكمهم

---

(1) الفتح الرباني، المجلس التاسع والخمسون، ص: 207.

(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون، ص: 90.

(3) بهجة الأسرار، ص: 88، قلائد الجواهر، ص: 3.

(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الواحد والستون، ص: 224.

(5) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 298).

(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 517.

الأهواء والمنافع الشخصية، وكانوا يثيرون الخلافات المذهبية ويغيرون انتماءاتهم طبقاً لمصالحهم الذاتية ممّا عمق قناعته بأن انحراف بعض الفقهاء وتكسبهم بدينهم هو نتيجة حتمية لفراغ قلوبهم من التقوى ومراقبة الله ﷻ، وجعله يسلك طريق التصوف لكن ثقافته الفقهية التي تستمد أصولها من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح كان لها الأثر الكبير في سلامته وعبوره ساحل النجاة وعدم تأثره بالفلسفات وعلوم الكلام[1].

د ـ المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي كانت للتصوف في زمانه إثر الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة الشيخ عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر به في كتابه «الغنية» حيث يظهر التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي[2]، وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقّحها وزاد عليها وكوّن تياراً إسلامياً متماسكاً وحوّل هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط، واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له، ساهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض.

3 ـ موقفه من العلم والعمل:

اهتم الشيخ عبد القادر الجيلاني بجانبي العلم النظري والعملي، وفي هذا المجال قال في نصيحة وجهها إلى بعض طلّابه: إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله ﷻ وعلمه يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله ﷻ. ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بها فما تفلح أبداً[3]، وكان الجانب العلمي موضع عناية الشيخ عبد القادر الجيلاني، فمن وصاياه التي كان يوجهها إلى طلاّبه ومريديه قوله: يا غلام تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسوله ﷺ ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذلك تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لا تنتهي، قال ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]. لم تقولون وتخالفون أما تستحون، لم تدّعون الإيمان ولا تؤمنون[4]. ويؤكد على التشبيه السيىء للعالم الذي لا يعمل بعلمه بقوله: مثّل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5] الأسفار: هي كتب العلم هل ينتفع الحمار بكتب العلم؟ ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب، من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربّه ﷻ وطواعيته له. يا مدعي العلم، أين بكاؤك من خوف الله ﷻ؟ أين

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 518. والثلاثون، ص: 127.

(2) المصدر نفسه، ص: 518. (4) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر، ص:

(3) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس التاسع 35.

حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله ﷻ؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟ أنت همك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم[1]. وكان اهتمام الشيخ عبد القادر الجيلاني بالجوانب التربوية كبيراً إذ أن معظم توصياته لها علاقة مباشرة بالسلوك العملي التربوي ومن الأمثلة على ذلك تلك الخصال الحميدة التي وصَّى بها، والتي تحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يمكن الإنسان الاتصاف[2] بها وهي:

أ ـ ألَّا يحلف بالله ﷻ لا صادقاً ولا كاذباً ولا عامداً ولا ساهياً؛ لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعوَّد لسانه دفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً وعامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله عليه باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه ورفعة درجته وقوة في عزمه وفي صبره، والثناء عند الإخوان والكرامة عند الجيران حتى يأتمّ به من يعرفه ويهابه من يراه.

ب ـ أن يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً؛ لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره وصفا به علمه، كأنه لا يعرف الكذب وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيَّره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

ج ـ أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شيئاً فيخلفه ويقطع العِدَةَ البتة فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه؛ لأن الحلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فُتح له باب السخاء ودرجة الحياء، وأعطى مودة في الصادقين ورفعة عند الله جلَّ ثناؤه.

د ـ أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها؛ لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يُدَّخَر له من الدرجات ويُستَنقَذ من مصارع الهلاك ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد ويقربه منه ﷻ.

هـ ـ أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بقول ولا فعل فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد، وعزَّ في الدنيا في قلوب المؤمنين.

و ـ ألَّا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة، وهي تمام السنة وأبعد عن الدخول في علم الله، وأبعد من مقت

(1) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر، ص: 51. (2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 520.

الله وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين[1].

ز ـ أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدنيا مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

ح ـ أن يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغنى واليقين والثقة به ﷻ، ولا يرفع أحداً سواه ويكون الخلق عنده في الحق سواء ويقطع بأن هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتقين وهو أقرب باب الإخلاص.

ط ـ ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم، فإنه العز الأكبر والغنى الخاص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله ﷻ وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله ﷻ.

ي ـ **التواضع**: لأن به يُشيَّد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى والتواضع، هو ألَّا يلقى العبد أحداً من الناس إلا رأى له الفضل عليه، ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني وإن كان كبيراً قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أعطى ما لم أبلغ ونال ما لم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلمه، وإن كان جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بما يختم لي وبما يختم له. وإن كان كافراً[2] قال: لا أدري عسى أن يُسْلم فيختم له بخير العمل وعسى أن أكفر فيختم لي بسوء العمل[3].

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون، ص: 117.

(2) هذه العبارة بها نظر، لأن المسلم لا يمكن أن يرى أن الكافر أفضل منه أو أنه عند الله خير منه وأرفع درجة، ولعلها خرجت من الشيخ مخرج المبالغة في التواضع.

(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون، ص: 117.

سادساً: آداب الشيخ والمريد والصحبة عند عبد القادر الجيلاني:

1 ـ واجبات المريد:

وضع الشيخ عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي:

أ ـ الاعتقاد الصحيح هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

ب ـ التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً أصلاً وفرعاً.

ج ـ الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال أمره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

د ـ الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

هـ ـ الاتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

و ـ الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ز ـ الإيثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو ويشبع الباقون، ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ح ـ أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ط ـ أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ي ـ أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات[1]. هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها، وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات[2].

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 163) بتصرف يسير. (2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 530.

2 ـ آداب المريد مع الشيخ:

نظراً لأهمية صلة المريد بالشيخ فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني آداباً خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي:

أ ـ طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: 10]. وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الشيخ بسببه.

ب ـ أن يستر ما قد يرى من عيوب الشيخ ويتهم نفسه، فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا له بالتوفيق، ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الشيخ معصوم، وإنما حصل منه وإنما هو عن غفلة.

ج ـ ملازمة الشيخ وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو ظهر إعراض فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

د ـ أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه، وأن يفعل معه ما يسره.

هـ ـ أن يحظى الشيخ بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يُتلقى العلم والمعارف على يديه.

و ـ أن يحذر من مقارفة الذنوب؛ لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

ز ـ ألا يتكلم أمام شيخه إلّا للضرورة، وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه، ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض[1].

والذي ننبه إليه أن تكون الطاعة في المعروف، فإذا أملى الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته، أما إذا أملى الشيخ ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته هذا إذا كان الشيخ معروفاً بالدين والإيمان والاستقامة والصلاح، أما من عرف بالابتداع

(1) الغنية للجيلاني (2/ 164).

والفجور فيجب الإنكار عليه، وبيان بدعته وفجوره وتحذير الناس منه فضلاً عن أن يُطاع فيما يأمر به[1].

3 ـ الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده:

لكي تتم عملية التربية السلوكية بنجاح ولأنها مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما المريد والشيخ، فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني يضع آداباً وواجبات لا بدَّ أن يراعيها الشيخ أثناء تعامله مع المريد وهي:

أ ـ أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألّا يحمله ما لا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.

ب ـ إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ج ـ أن يثبته على الطريق وألّا يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام واتصل.

د ـ أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذّره من العودة ورغبة في التوبة إلى الله.

هـ ـ أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق؛ لأنه محل القدوة والرحمة يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه[2].

4 ـ آداب صحبة الإخوان:

بدأ الشيخ عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم. من ذلك:

أ ـ الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب ـ ألا يرى له على أحد حقّاً ولا يطالب أحداً بحق بل يرى أن لكل منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 531. (2) الغنية للجيلاني (2/ 168) بتصرف يسير.

ج ـ أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون، وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن، وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.

د ـ أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم، فإن خالفه أحد منهم في شيء سلَّم له ما يقول في الظاهر، وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول[1]، وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية، أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بُد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل.

هـ ـ أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة[2].

و ـ أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله ﷻ والبغض فيه، يقول في هذا المعنى: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبَّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة وأنت تبغضه، فأبشر بموافقتك لله ﷻ ولرسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاصٍ لله ﷻ ولرسوله مخالف لهما، فتب إلى الله ﷻ من بغضك واسأله ﷻ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له ﷻ، وكذلك افعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه، وإن كانت مبغوضة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26][3]. وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان؛ لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على معارف العلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش معهم في المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته وهو المحك الذي يُظهر الإنسان على حقيقته، ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب[4].

سابعاً: الأحوال والمقامات:

1 ـ التوبة:

قال ابن عباس ﷺ: التوبة النصوح هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع،

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 534، الغنية للجيلاني (2/ 169).

(2) الغنية (2/ 169)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 535، 536.

(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الحادية والثلاثون، ص: 75.

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 535، 536.

بالبدن والإضمار على ألا يعود[1]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي: ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوى قوي التأثير هو الشيخ عبد القادر الجيلاني فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى[2]. والشيخ عبد القادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول: اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم[3]، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول: تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك، الشأن في ثبوتك عليها، وليس الشأن في غرسك الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته[4]. قد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول: يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها[5].

وعن التائبين يصنف الشيخ عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف: توبة العوام وتوبة الخواص، وتوبة خاص الخاص، ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله ﷻ، ثم يوضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] بأن هذا: خطاب للعموم بالتوبة، وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال: تاب فلان من كذا أي رجع عنه، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله ﷻ ومن جنته وتركها مقرب إلى الله ﷻ وجنته فكأنه ﷻ يقول: ارجعوا إليَّ من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار[6]، كما يقرر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة، وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها[7].

ثم يعرف الكبائر بأنها: ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا. وأن

---

(1) التعريفات للجرجاني، ص: 95.
(2) رجال الفكر الدعوة، نقلاً عن الشيخ عبد القادر، ص: 597.
(3) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع، ص: 18.
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 597.
(5) الفتح الرباني، المجلس الثالث عشر، ص: 48.
(6) الغنية للجيلاني (1/ 116).
(7) المصدر نفسه (1/ 116).

بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة: أربع في القلب؛ وهي: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما: الزنا، واللواط. واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف. وواحدة في جميع البدن وهي: عقوق الوالدين[1].

وتحدث عن صدق التوبة، وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة:

أولها: الندم على ما عمل من المخالفات.

وثانيها: الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها: العزم على ألّا يعود إلى ما اقترف من المعاصي والخطيئات[2]. ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو: توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألّا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك[3]. ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء:

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.
- ألّا يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة وأن يفارق إخوان السوء.
- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه[4]. ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

أحدهما: في حق العباد بعضهم تجاه بعض وهذا لا يتحقق إلّا برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني: يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألّا يعود إليه في المستقبل[5]. هذه هي التوبة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني ونظراته إليها وتوجيهاته للتائبين وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها[6].

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 117).
(2) المصدر نفسه (1/ 122).
(3) المصدر نفسه (1/ 122).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 600.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 126).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 600.

2 ـ الزهد:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول: المتزهد يُخرج الدنيا من يديه، والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه[1] ويقول: الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها قلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها[2]، ويقول: وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها تعدو خلفه ولا يعدو خلفها يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله ﷻ فلا تقدر الدنيا أن تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه[3]، ويقول: المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا يبني في الدنيا للآخرة يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لا بدَّ له منه يفعل ذلك حتى يبني له في الآخرة[4].

وبيَّن الشيخ عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الاتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً، لأن الزهد على حد تعبير الجيلاني: منة صالحة وإلَّا فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل. زهد في الأشياء قبله وأعرض عنها سِرّه واشتغل بما أمر به وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه ترك الأقسام تعدوا خلفه وتدل وتسأله قبولها[5] وقال: يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها ليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل.

والشيخ عبد القادر الجيلاني يربط بين العلم والزهد، ويرى أنه لا بُدّ من تلازمهما للوصول إلى الله ﷻ وهذا واضح من قوله: ما وصل من وصل إلَّا بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها، بالقلب والقالب[6]. وقال: من صَحَّ زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه[7]. والشيخ عبد القادر الجيلاني على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد: الزهد على ثلاثة أوجه:

---

(1) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون، ص: 106.

(2) المصدر نفسه، المجلس الخامس والعشرون، ص: 89.

(3) المصدر نفسه، المجلس الرابع والثلاثون، ص: 113.

(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السادس عشر، ص: 59.

(5) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثامن والعشرون، ص: 98.

(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون، ص: 107.

(7) المصدر نفسه، ص: 106.

(8) المصدر نفسه، المجلس الثاني والستون، ص: 232.

الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. **والثاني**: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. **والثالث**: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه ﷺ من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد[1]. وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبد القادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد[2].

3 ـ التوكل:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني مسألة التوكل وتعرَّض لأربع مسائل:

المسألة الأولى: الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته:

فقال: الأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3] وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]. وحقيقته تفويض الأمور إلى الله ﷻ والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألَّا تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدَّر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه[3].

المسألة الثانية: أقسام التوكل ودرجاته:

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل: يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه[4] ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات:

الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه صدورها عن مشيئته وقدرته، وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية: إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول، مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ

---

(1) مدارج السالكين لابن القيم (2/ 12).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 606.
(3) الغنية للجيلاني (2/ 189).
(4) المصدر نفسه (2/ 189).

ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلّا برفض الأسباب، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها؛ علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه، ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلّا إلى ربه سبحانه.

الخامسة: حسن الظن بالله ﷻ، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه، ولهذا فسَّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه[1].

المسألة الثالثة: ثمرات التوكل:

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن للتوكل ثمرات فقد قال: من أحب القوة في دين الله ﷻ فليتوكل على الله ﷻ؛ لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب، لا تتوكل على درهمك ودينارك وأسبابك، فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله ﷻ، فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب[2].

وهذا ما أكّده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ

(1) مدارج السالكين (2/ 112).

(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والأربعون، ص: 134.

عبد القادر الجيلاني من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه: مَن جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأوّلتان: العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1]، والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلّا بالله، وفي الأثر: «مَن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[2]. وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جِماع الإيمان[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، وقوله: ومن اتبع مرادنا؛ يعني المراد الشرعي، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: 28]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 6]، وفي الحديث الصحيح: «لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه»[4]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: 26] وقوله: ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءاً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر[5]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

المسألة الرابعة: الأسباب:

بيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها، فقال: اعتقاد المتبعين لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ: أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله ﷻ يقطع به، وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله ﷻ المحرق بها، وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله ﷻ يشبع به، وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله ﷻ المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله ﷻ المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء[6]، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على

---

(1) البخاري رقم: 7536، مسلم رقم: 2675.
(2) الشيخ عبد القادر، ص: 612.
(3) السنة، عبد الله بن أحمد رقم: 776.
(4) المصدر نفسه، رقم: 776.
(5) البخاري رقم: 7536.
(6) فتاوى ابن تيمية (10/ 549)، الشيخ عبد القادر، ص: 613.

مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد: أَعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب[1].

4 ـ الشكر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل:

الأولى: حقيقة الشكر: فقال رَحِمَهُ اللَّهُ : وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع[2].

وأما أقسامه: فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال: ثم الشكر ينقسم أقساماً: إلى شكر باللسان: وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب: وهو اعتكاف على بساط الشهور بإدامة حفظ الحرمة[3]. وفي موضع آخر يصف الشيخ عبد القادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول: أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله ﷻ، وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجدها والسبب لها هو الله ﷻ والقاسم هو الله والمجري هو، فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المبرم أن جميع ما بك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله ﷻ لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك، وأما شكر الجوارح: فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله ﷻ دون غيره من الخلق فلا تحب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً، وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً[4].

وأما أصناف الشاكرين: فقد جعلهم ثلاثة أصناف:

الأولى: من وصفهم بالعالمين وهم: السواد الأعظم من العباد، وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني: من وصفهم بالعابدين وهم: المؤمنون على وجه العموم، والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم، يكون نوعاً من أفعالهم.

---

(1) فتاوى ابن تيمية (10/ 549)، الشيخ عبد القادر، ص: 167.

(2) الغنية للجيلاني (2/ 193).

(3) الغنية للجيلاني (2/ 194).

(4) فتوح الغيب للجيلاني، ص: 134.

والثالث: من وصفهم بالعارفين والمقربين، وشكرهم باستقامتهم لله ﷻ في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله ﷻ بتوفيقه سبحانه[1].

5 ـ الصبر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الصبر، فقال الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127]، وقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[2]، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب:

الأول: صبر لله ﷻ وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني: صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث: صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة[3]. وقال عن أصناف الصابرين بأنهم ثلاثة أصناف: متصبر وصابر وصبار[4].

وأخيراً فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين:

أحدهما: صبر على ما هو كسب من فعل أوامرِ الله وترك نواهيه.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك[5]. وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[6].

6 ـ الرضا:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وقضاء الله ﷻ خير من قضاء المرء لنفسه، وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 194)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 621.
(2) البخاري رقم: 1702، مسلم رقم: 926.
(3) الغنية للجيلاني (2/ 195).
(4) المصدر نفسه (2/ 195).
(5) المصدر نفسه (2/ 195).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 625.

لك مما قضى الله ﷻ لك فيما تحب، فاتق الله تعالى، وارض بقضائه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]. يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، فالله ﷻ طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة، واستأثر هو ﷻ بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه[1]، وقال: واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، فكل من رضي بالقضاء استراح وكل من لم يرضَ به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلَّا بما قسم له[2].

7 ـ الصدق:

والأصل فيه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً، وإيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً**»[3].

والشيخ عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق مُنذ شبابه وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال: عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميصي وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد، فاجتازني أحدهم وقال لي: كم معك يا فقير؟ فقلت: أربعون ديناراً فقال: وأين هي؟ فقلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر، فقال لي: مثل ما قال الأول؛ فأجبته كما أجبت الأول، فتركني وانصرف، وتوافيا عند مُقَدَّمِهم فأخبراه بما سمعاه مني فقال: عليَّ به فأتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً، فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي، فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً، فقال: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق، وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال: أنت لم تَخُنْ عهد أمك، وأنا لي كذا وكذا سنة أخون

(1) الغنية للجيلاني (2/ 197).
(2) المصدر نفسه (2/ 197).
(3) البخاري رقم: 6094، مسلم رقم: 2607، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 633.

عهد ربي، فتاب على يديَّ، فقال له أصحابه: أنت كنت مقدماً في قطع الطريق، وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم[1].

وللصدق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول: واعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]. وقد فرّق الشيخ عبد القادر الجيلاني بين الصادق والصدِّيق بقوله: والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصدِّيق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه، فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله، والصدِّيق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله[2].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبد القادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة[3].

ثامناً: تأسيس الطريقة القادرية:

تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني، والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني[4]، والمطّلع على سيرة الشيخ عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة، والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة:

1 ـ **التأكيد على التمسك بالكتاب والسنة** يقول رحمه الله وهو يوجّه وصيته إلى ولده عبد الرزاق: أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي ـ وفقنا الله وإياك والمسلمين ـ أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان[5]، ويقول

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 64.
(2) الغنية للجيلاني (2/ 200).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 634.
(4) المصدر نفسه، ص: 636، 637.
(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 639.

في موضع آخر: أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن خطر خاطر[1]، أو جدَّ إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين[2]. ومن تركيز الشيخ الجيلاني على أهمية التمسك بالكتاب والسنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصية بالآخرين بقوله: إذا وجدت في نفسك بغض شخص أو حبه فاعرضه على الكتاب والسنة ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[3].

2 ـ **خلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره** نتيجة ترجمة المعارف اليونانية وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبائلها كثير من المتصوفة فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل: الهيولى[4]، والعرض، والجوهر[5].

3 ـ **تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية**: وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك ما طبقه في حياته وما ربَّى عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي تعتمد على سبعة أصول هي: المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر[6]. وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

4 ـ **وضعه لمجموعة من الآداب والتعاليم** التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته سواء مع النفس أو مع الشيخ أو مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

5 ـ **تأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها والبعد عن نواهيه واجتنابها والرضا بأقدار الله والاستسلام لها، يقول** رحمه الله: لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمْرٌ يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله[7].

وقد شرح ابن تيمية كلام الشيخ عبد القادر واستحسنه بقوله: هذا كلام شريف جامع

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 640.
(2) فتوح الغيب، الجيلاني، ص: 6.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 640.
(4) الهيولى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.
(5) الجوهر: ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع،/ وهو مختصر في خمسة أشياء هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل.
(6) الغنية للجيلاني (2/ 182).
(7) فتوح الغيب للجيلاني المقالة الأولى، ص: 6.

يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 120]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]، فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور والصبر يتضمن الصبر على المقدور فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت. وطاعة الله ورسوله هي عبادته التي خلق لها الجن والإنس كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]. والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] ثم مضى رَحِمَهُ اللَّهُ في توجيه كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني وشرح مراده من تلك العبارات[1].

هذه هي أهم الأسس التي أوصى بها الشيخ عبد القادر وأتباعه المنتسبين لطريقته[2]. وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته، فقد قال: . . والذي نختار قول أئمتنا. . ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني.

تاسعاً: الخطوط العريضة لدعوته الإصلاحية:

ـ **بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك**: يُعيد المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام 521هـ/ 1127م[3]. والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيؤ النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين، وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة، ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً[4]، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة فخرج

(1) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (10/ 456).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 643.
(3) نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني، ص: 79.
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.

إلى سور بغداد بجانب رباطه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير[1]، ومُنذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بأمور منها:

1 ـ اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة:

كان الشيخ أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي آلت إلى تلميذه عبد القادر الجيلاني، فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم[2]. وروى لنا المؤرخون ـ أثناء ذلك ـ صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلُّق الأتباع بالشيخ، من ذلك، امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً. وكان زوجها من العمال، فجاءت إلى الشيخ عبد القادر تصحب زوجها، وقالت: هذا زوجي ولي عليه من المهر قدر عشرين دينار ذهباً، ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلَّمت الشيخ خط الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الشيخ يشغله في المدرسة يوماً بلا أجرة ويوماً بأجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له: أنت في حِلٍّ من الباقي[3]. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام (528هـ/ 1133م)، وصارت منسوبة إلى الشيخ عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها: التدريس والإفتاء والوعظ[4]، وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب[5]. ومنهم من أوقف الكتب لمكتبتها[6]، وكان لها خدم مهمتهم العناية بأمورها وخدمة الأساتذة والطلاب[7].

وكرّس الشيخ عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط، ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل طالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها أشرف منقبة وأجل مرتبة. وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيُميَّزُ يوم القيامة عمن سواه ويعطى درجات أسمى من غيره[8]. لقد أمضى الشيخ عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام (528هـ/

(1) المنتظم (10/ 219).
(2) المنتظم (10/ 219)، طبقات الحنابلة (1/ 291).
(3) طبقات الحنابلة (1/ 291)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(5) شذرات الذهب، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(7) المصدر نفسه، ص: 187.
(8) سر الأسرار، لعبد القادر الجيلاني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.

1133م) حتى وفاته عام (561هـ/ 1166م)[1]، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم[2]، ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية[3]، والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه عبد القادر، يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف: باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون[4]، وإليك تفاصيل البرنامج المذكور:

أ ـ الإعداد الديني والثقافي: يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامة، درّسه الشيخ عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه: «الغنية لطالبي طريق الحق» الذي صنّفه على طريقة كتاب «إحياء علوم الدين للغزالي» واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النابه من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة[5]، بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس[6]، وأما إذا كان الدارس طالباً من طلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل على التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة[7]، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرطاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية ـ في مجلدي التصوف وعلم السلوك ـ من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبدالقادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة، والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي[8].

ب ـ الإعداد الروحي: يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى

---

(1) قلائد الجوهر، ص: 32، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.
(2) مدارس بغداد في العصر العباسي، ص: 154.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.
(4) المصدر نفسه، ص: 189.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 71، 84).
(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 435.
(7) قلائد الجوهر، ص: 3.
(8) الفتاوى، علم السلوك ج 10، كتاب التصوف ج 11.

يصبح صفاء بلا كدر ويصير مع النبي ﷺ في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته[1].

ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي بأعمال أولي العزم، وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الشيخ دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية، وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية تستهدف إقناع المريد بما يمارسه، فكان هناك دراسات حول الأوراد والأذكار[2]، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريد عليها، ويحتوي كتابا «الغنية» «وفتوح الغيب» فصولاً مطولة مما اعتمده الشيخ عبد القادر في ذلك[3].

ج ـ **الإعداد الاجتماعي**: ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات، والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره، والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها، حيث يتدرب المريد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد تنظيم حياة المريد الخاصة؛ وعلاقات المريدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ؛ وعلاقاتهم ببعضهم البعض؛ وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد، كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية. كذلك حرص الشيخ عبد القادر أن يبتعد بالمريد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة[4]. وأما عن تنظيم علاقة المريد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريد طاعة الشيخ في الظاهر والباطن، وأن لا ينقطع عنه وأن يستشيره في جميع شؤونه، وفي المقابل أوجب على الشيخ أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجأ وسنداً وراعياً، فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه[5].

وحدد القاعدة التي يعتمدها المريد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي: أن تصحب

---

(1) الفتح الرباني، ص: 206، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 190.

(2) الغنية للجيلاني (2/ 81/ 86)، الفتح الرباني، ص: 85.

(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 192.

(4) المصدر نفسه، ص: 193.

(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 194.

الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل... وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء.. وعلى المريد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه، شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم[1].

2 ـ الوعظ وموضوعاته:

بالرغم من اشتغال عبد القادر بالتدريس وإعداد المربين، فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ العامة التي استهدفت إيصال دعوته إلى عامة الناس، فخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع: صباح الجمعة، ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط[2]، ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عُد في مجلسه مقدار أربعمائة محبرة[3]. وقد جُمع قسم كبير من هذه المواعظ ـ أو المجالس كما كانت تسمى ـ في كتاب يُعرف باسم «الفتح الرباني» مع تحديد تواريخها وأمكنة إلقائها، كان الشيخ عبد القادر ـ في مواعظه ـ شديد الحماسة للإسلام مشفقاً لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس، ويود لو استطاع استنفار الخلق جميعاً لنصرة الإسلام، يقول في أحد مجالسه: دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه، هلموا يا أهل الأرض نُشيِّد ما تهدم ونقيم ما وقع، هذا شيء ما يتم، يا شمس، ويا قمر، ويا نهار تعالوا[4]. ويقول في موعظة أخرى: سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي ﷻ. ما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا سوى الحق ﷻ. فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسبت، وفرحت كيف خرج من تحت يدي[5]، ومن أقوله كذلك: ألا إني راع لكم، ساق لكم، ناطور لكم ما ترقيت ها هنا وأرى لكم وجود الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد. ألزمت هذا المقام. حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم عندي سواء. كم من يذمني كثيراً ثم ينقلب ذمه حمداً. كلاهما من الله لا منه، إقبالي عليكم لله، أخذي منكم لله، لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر، وجاوبت عنه منكراً ونكير رحمة وشفقة عليكم[6].

بهذا الحماس، انطلق الشيخ عبد القادر يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام،

(1) الغنية للجيلاني (2/ 128، 154) فتوح الغيب، ص: 75، 167.
(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 195.
(3) قلائد الجوهر، ص: 18.
(4) الفتح الرباني، ص: 295.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 196.
(6) الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 197.

ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليمه وحمل رسالته. وكان يرى أن صلاح دين الفرد لا يتم إلا بإصلاح القلب، وفك إساره من حب الدنيا والأخلاق الذميمة، ومن كل ما يشغل عن الله، ومن هنا كثرت في مواعظه دعوة الناس إليه للتربية والتزكية[1]، وكانت مواعظه وخطبه بعضها موجه لنقد العلماء والحكام والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

أ ـ انتقاد العلماء: كان الغالبية من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة، ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام، ومنهم من عُرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الشيخ عبد القادر عن كثب كل ذلك وأمثاله فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين، ويساهمون في ارتكاب المحظورات، ومن مواعظه العامة في ذلك قوله: يا سلّابين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق، أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء؛ لا خير عندكم[2]، وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في 9 رجب سنة (546هـ/ 1151م): لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العَالِم لا رِجْلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يَدَيْن له يأخذ بهما أموال الناس، والمحب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره[3].

وحذّر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال: يا عباد الله... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يأمرونهم بأمر ولا ينهونهم عن نهي. إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً طهّر الله الأرض منهم ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه. إني أغار إذا سمعت واحداً يقول: الله الله وهو يرى غيره[4].

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله: دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة[5]. ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء[6]. المنحرفين على هدي المصلحين والعلماء الربانيين، وكان هجوم الشيخ عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به: تصحيح الوضع السائد، والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الربانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر

(1) الفتح الرباني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 197.
(2) المصدر نفسه، ص: 198.
(3) المصدر نفسه، ص: 202.
(4) المصدر نفسه، ص: 199.
(5) المصدر نفسه، ص: 199.
(6) المصدر نفسه، ص: 201.

التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين، وقد حالف الشيخ عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب ـ انتقاد الحكام: وخص الشيخ عبد القادر الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة، يقول في أحد مجالسه: صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوة آلهة، وَيْحكم جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قوياً، الميت حياً، . . إذا عظَّمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله ﷻ ولم تعظمه، فحكمك حكم من عبد الأصنام، تصيّر مَنْ عظمت صنمك[1]، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاطين دون تحرز: يقول في إحدى مواعظه: يا غلام. . اخدم الحق ﷻ ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرون ولا ينفعون أيش يعطونك؟ يعطونك ما لم يقدَّم لك؟ أو يقدرون أن يقسموا لك شيئاً لم يقسمه الحق ﷻ؟ لا شيء مستأنف من عندهم، إن قلت: إن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت[2]. ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها انحرافات أو مظالم، ففي عام 541هـ/ 1146م ولّى الخليفة المقتفي يحيى بن سعيد المعروف: بابن المرجم القضاء، فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات وألصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الشيخ عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد، وخاطبه من على المنبر قائلاً: ولّيت على المسلمين أظلم الظالمين، وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور[3] ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحجاب، وتذكر المصادر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لاعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته[4]، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى بعيداً عن مواطن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألمّ بباب حاكم قط وأنه تتناولها يده[5].

ج ـ انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده: نظر الشيخ عبد القادر إلى المجتمع

---

(1) الفتح الرباني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 201.

(2) المصدر نفسه، ص: 201.

(3) مرآة الزمان (8/ 265)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 202.

(4) طبقات الحنابلة (1/ 292).

(5) قلائد الجوهر، ص: 19-30، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 203.

المعاصر له على أنه مجتمع: الرياء والنفاق والظلم، وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى[1]، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم. يقول في إحدى مواعظه: هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية طالبون للدنيا[2]، وقال في إحدى المواعظ: ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان، كل هذا هوس ومقت وعقوبة، وتوبوا واتركوا ذنوبكم، وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره[3].

د ـ **الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة**: ركز الشيخ عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء «بأطيب الأطعمة وأحسن الكسوة وأطيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال» فأفتى بأن انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين[4]. ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المريد في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله[5]. وشدّد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم، حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير، وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل[6]، ولم يقف اهتمام الشيخ عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع؛ فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء، ويقدم لهم المنام والغذاء، ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون[7]. كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال، فلقد نقل عنه قوله: فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلُق الحسن، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم تَبت عندي[8]. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء على عبد القادر إقبالاً شديداً

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 203.
(2) المصدر نفسه، ص: 203.
(3) المصدر نفسه، ص: 203.
(4) الفتح الرباني، ص: 64 ، 65، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 204.
(5) المصدر نفسه، ص: 52، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 205.
(6) الفيوضات الربانية، ص: 35، 37.
(7) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 205.
(8) المصدر نفسه، ص: 205.

وتحمسوا له[1]. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله: وتاب على يدي من العيّارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير[2].

3 ـ التصدي للتطرف الشيعي الباطني وللتيارات الفكرية المنحرفة:

تعرض الشيخ عبد القادر الجيلاني لعقائد الفرق الإسلامية المختلفة، ويلاحظ على مناقشته لهذه الفرق أمران: **الأول**: إنه لم يطمس أقوالها عن فرقة السنة التي ينتمي إليها، من ذلك قوله: إن المعتزلة تسمي السنة مجبرة لقولها: إن جميع المخلوقات بمشيئة الله وقدرته وإرادته وخلقه، وأن المرجئة تسميها شكاكية لقول واحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وكان يذكر أقوال الفرق المختلفة في السنة، ثم يرد عليها ويحذر منها؛ لأن السنة هم الفرقة الرشدة الناجية[3] **والثاني**: أن مناقشته لفرق المعتزلة[4]، والمرجئة والخوارج والقدرية والجهمية، وما انقسموا إليه من فروع تدل على اطلاع واسع على تاريخ هذه الفرق وعقائدها ومقارنتها بعقائد أهل السنة[5]... وناقش عقائد الشيعة ففصل في ذلك تفصيلاً واضحاً مستعرضاً تاريخ الشيعة وفرقهم، ثم ناقش عقائدهم سواء ما يتعلق بالقضايا السياسية والمجتمع، أو القضايا العقائدية الغيبية، وأصدر أحكاماً عليها من حيث الإسلام أو الكفر، وهو في مناقشته لعقائد الشيعة حاول أن يتتبع أصولها فجعل لبعض هذه العقائد جذوراً يهودية من ذلك قوله: قالت اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل بسبب من السماء وقالت الروافض: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي منادٍ من السماء، وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الروافض يؤخرونها... واليهود يبغضون جبريل عليه السلام ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الروافض يقولون غلط جبريل عليه السلام بالوحي إلى محمد ﷺ وإنما بعث إلى علي رضي الله عنه[6]، وأنكر على الشيعة قولهم بعدم إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان[7]، وبين أن علياً رضي الله عنه بايعهم[8]، وكان الشيعة يقصدون مجالس الشيخ عبد القادر، وكان يناقشهم في عقائدهم[9]، ويظهر الدور الكبير الذي لعبته الحركة القادرية

---

(1) المنتظم (10/ 219).
(2) قلائد الجواهر، ص: 19 للتادفي.
(3) الغنية (1/ 84) نشأة القادرية، ص: 126.
(4) نشأة القادرية، ص: 126.
(5) المصدر نفسه، ص: 127.
(6) المصدر نفسه، ص: 128 الغنية (1/ 79).
(7) المصدر نفسه، ص: 128 الغنية (1/ 68).
(8) المصدر نفسه، ص: 128.
(9) القلائد، ص: 30 للتادفي، نشأة القادرية، ص: 128.

في مقاومة التشيع المتطرف ـ أو التيار الفاطمي ـ الباطني ومساهمتها الفعّالة في تقويض دولة الفاطميين العبيديين في مصر والتمهيد لدخول جيوش نور الدين محمود، كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله. وكان دور الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصدي للشيعة الرافضة الباطنية كبيراً، ولذلك كان موقف الشيعة الرافضة من الشيخ عبد القادر عنيفاً ومليئاً بالحقد والبغض على المستوى السياسي والفكري، فقد كانت مدرسة عبد القادر وضريحه وآثاره وأسرته أولى الأهداف التي تعرضت للتنكيل في كل مرة يدخل فيها أمراء الشيعة الرافضة إلى بغداد، ففي عام (914هـ/ 1508م) احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد، فخرب المدرسة ونكل بالأسرة الكيلانية تنكيلاً شديداً وفرقهم في البلاد[1]، حتى إذا فتح السلطان سليمان القانوني العثماني بغداد أعاد للمدرسة هيبتها القديمة وأمر بإصلاحها.. وعمّر الرباط وعين لها أوقافاً كثيرة[2]، ثم توالت الإصلاحات والإضافات من قبل الولاة أمثال الوند زاده علي باشا وسنان[3] باشا، وفي أثناء الاحتلال الإيراني الثاني سنة (1033هـ/ 1623م) قام صفي قولي بهدم مشهد الشيخ عبد القادر وخرّب مدرسته ونكّل بأسرته. وبقي الاحتلال حتى قيام مراد الرابع العثماني بفتح بغداد عام (1048هـ/ 1638م) وقيامه على تعمير المكان[4]. وأما موقف الكتّاب الشيعة الروافض من الشيخ عبد القادر فيمثله مؤرخهم الكبير ومرجعهم في السير الخوانساري لترجمة الشيخ عبد القادر، فقال: وضعته العامة العمياء في أرفع مكان، وفتحوا له في سوق التصنع والمخادعة للعوام دكاناً فوق دكان، بل جعلوا مكمن جسده كصنم من الأصنام العظام، وأن الرجل عدل عن دائرة العدل، وغفل عن قاعدة الشرع إلى ما هنالك من السباب والشتائم، وأنكر كراماته وطعن في نسبه[5].

4 ـ إصلاح التصوف:

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وإعادته إلى مفهوم «الزهد» ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع، ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

أ ـ تنقية التصوف مما طرأ عليه: من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه: «الغنية لطالبي طريق الحق» و«فتح الغيب» خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى

(1) نشأة القادرية، ص: 129.
(2) المصدر نفسه، ص: 129.
(3) العراق بين احتلالين للعزاوي (4/ 33، 119).
(4) المصدر نفسه (4/ 234)، نشأة القادرية، ص: 129.
(5) روضات الجنان (5/ 85، 89)، نشأة القادرية، ص: 129.

«كتاب السلوك» وقدّمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[1].

ب ـ الحملة على المتطرفين من الصوفية: حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلبَّسوا بالتصوف أو شوّهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان: بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عمّا سوى مولاه ﷻ[2]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة، وقرّر أن المريد الصادق لا يهيِّجه كلامٌ غير كلام الله، وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق[3].

ج ـ محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها: في الفترة الواقعة بين عامي (546هـ ـ 550هـ/ 1151م ـ 1155م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري، وتصدَّر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة اجتماع عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني ـ خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الكيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب[4] ـ في (ذاك العصر) كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم[5]. وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[6]. ثم تلا ذلك

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 209.

(2) المصدر نفسه، ص: 209.

(3) المصدر نفسه، ص: 209.

(4) طبقات الحنابلة (1/ 306) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 245.

(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 245.

(6) المصدر نفسه، ص: 245.

اجتماع موسع، حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار هامة منها:

ـ وحدة العمل لدى مدارس الإسلام عامة، فقد أصبح للزعيم الشيخ عبد القادر اجتماعات متوالية مع كبار الشيوخ، يناقشون ما تحيله إليهم المدارس والأربطة في العالم الإسلامي من قضايا ومشكلات.

ـ إن المدارس والرباطات المختلفة أخذت ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من طلابها والمتقدمين من مريديها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، كما فعل الشيخ أبو مدين المغربي حين أرسل أحد مريديه ـ صالح بن ويرجات الزركالي ـ إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الشيخ عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة[1].

ـ إن إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد أدى إلى خفة ـ بل ربما اختفاء ـ معارضة الفقهاء وإلى التعاون بين الطرفين، بل صار الفقهاء يجمعون بين الفقه والزهد ويسمّون ذلك تكامل الشريعة والطريقة. وهذا الأمر جعل ابن تيمية يعتبر عبد القادر وأقرانه من قيادة مدارس الإصلاح نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فأطلق عليهم اصطلاح «الشيوخ الكبار المتأخرين» ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم[2].

ـ الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إطاره الطبيعي.

ـ خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحرّان وجبال هكار ودمشق، ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباطاتها، وبَنَيا لها فروعاً جديدة وأوقف عليها الأوقاف في

(1) بهجة الأسرار، ص: 107، هكذا ظهر جيل (2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 247. صلاح الدين، ص: 247.

المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة[1].

5 ـ النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يرى الشيخ عبد القادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن تُرك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم ولكل حسب مستواه ودوره، فالسلاطين: إنكارهم باليد، والعلماء: إنكارهم باللسان، والعامة: إنكارهم بالقلب[2]، والعلماء: هم الفئة التي تقرر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاطين والعامة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال، وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين طريق الزهد دون سواهم، هذه الصفات هي:

ـ أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.

ـ أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي، لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر؛ لأن الله تعالى نهى عن ذلك[3].

ـ أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله[4].

وحدّد الشيخ عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروطاً، وهي كما يلي:

ـ أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصايد الشيطان.

ـ أن يكون صبوراً متواضعاً زائل الهوى قوي اليقين حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

ـ أن يأمر العاصي وينهاه في خلوة لِمَا في ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه بأهل الخير، فإن لم ينفع فبأصحاب السلطان[5].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 247.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 44، 45).
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 216.
(4) المصدر نفسه، ص: 216.
(5) نشأة القادرية، ص: 168.

ـ عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى، ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة وأدب العالم أولى من علمه[1].

6 ـ مدارس النواحي والأرياف والبوادي:

تعتبر مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي ،ويعتبر الشيخ عبد القادر أحد رواد المدارس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك كانت مدارس متعددة ساهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها:

أ ـ المدرسة العدوية: أسس هذه المدرسة الشيخ عدي بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتأخرين) وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون[2]، ونشأ عدي في قرية يقال لها: «بيت فار» في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الشيخ عقيل المنيحي، ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الشيخ حماد الدباس وغيره، واجتمع هناك بالشيخ عبد القادر الكيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهروردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمناً طويلاً، ولذلك كان الشيخ عبد القادر يثني عليه كثيراً ويقول: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر[3].

قضى الشيخ عدي زمناً في مجاهدة «خاصة نفسه» بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة «جبال هكار» في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس[4]، ويصف ابن خلكان أثر الشيخ عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول: سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد[5]، ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الشيخ عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة، وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره.

لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الشيخ عدي ومكانته فقال: ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في

(1) نشأة القادرية، ص: 168.
(2) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (11/ 103).
(3) النجوم الزاهرة (5/ 362).
(4) وفيات الأعيان (3/ 254)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 225.
(5) المصدر نفسه، ص: 225.

موضع ليس به أنس، ثم آنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته، حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، عاش قريباً من ثمانين سنة، ما بلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولا يأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده، وقد طفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيته إذا أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه وقالا: ادع لنا فما نحن إلا في بركاتك، وأخرجا طبقاً فيه خبز وعسل فأكل الجماعة، وخرجت إلى زيارة الشيخ أول مرة، فأخذ يجادلنا ويسأل الجماعة ويؤانسهم.. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس، واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه مما يقبّلون يده، فأُجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته[1].

قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته[2]. وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار ـ فيما بعد ـ في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حقّقوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح[3]. توفي الشيخ عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام 557هـ[4].

ب ـ مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي: أسس هذه المدرسة الشيخ عثمان في «مصر» وكان يُعتبر من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الشيخ عبد القادر الكيلاني. لقد لعب ـ فيما بعد ـ دوراً هاماً في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الشيخ عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام (564هـ) عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[5].

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 342، 343).
(2) سير أعلام النبلاء (20/ 342).
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 256.
(4) قلائد الجواهر، ص: 85، 90.
(5) المصدر نفسه، ص: 113، 114.

ج ـ **مدرسة أبو مدين المغربي**: اشتهرت هذه المدرسة في «المغرب» وعرفت باسم: الشيخ أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدينة «تلمسان»، وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها[1]، ويصف الذهبي الشيخ أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية[2]. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتأخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم[3]. واستمر أبو مدين مواظباً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام 590هـ، وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه[4].

د ـ **مدرسة أبو السعود الحَريمي**: درس في المدرسة القادرية وتربّى على الشيخ عبد القادر، وصار المشار إليه بعده وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قوياً بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه[5].

هـ ـ **مدرسة ابن مكارم النعال**: تُنسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية، ثم استقل بعد وفاة عبد القادر، وصار يخرج بأصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك[6].

و ـ **مدرسة عمر البزاز**: تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وُصف بأنه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه[7].

ز ـ **مدرسة الجبائي**: أسسها عبد الله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية «جبة» في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه علي بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فأعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام (540هـ/ 1145م) حيث لازم الشيخ عبد القادر، وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الشيخ عبد

(1) قلائد الجواهر، ص: 108 ، 109، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 237.
(2) سير أعلام النبلاء (21/ 219، 220).
(3) فتاوى ابن تيمية ، كتاب التصوف (11/ 604).
(4) سير أعلام النبلاء (21/ 220).
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 237.
(6) المصدر نفسه، ص: 237.
(7) نشأة القادرية، ص: 194، 212.

القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الشيخ حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام (605هـ/ 1208م) عن أربع وثمانين سنة[1].

ح ـ مدرسة الشيخ ماجد الكردي: أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة «قوسان» في العراق، وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وطيدة بالشيخ عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه، ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام 562هـ[2].

ط ـ مدرسة حياة بن قيس الحراني: الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن قيس بن رَجّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وتألُّه وإخلاص وتعفف وانقباض، كان الملوك يزورونه، ويتبرَّكون بلقائه، وكان كلمة وفاق بين أهل بلدهِ. وقيل: إن السلطان نور الدين زاره، فقوَّى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له، وإن السلطان صلاح الدين زاره وطلب منه الدعاء[3]. وقد تخرج على يد الشيخ حياة الجُم الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وطلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام (581هـ)[4].

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كمدرسة الشيخ رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الشيخ علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الشيخ بقا بن بطو[5]، ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول: إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير مع التعاليم والمبادئ التي دعا لهما الغزالي والجيلاني، وأنها كانت امتدادات أصغر في لأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول: إنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد[6].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (2/ 45، 47).
(2) قلائد الجوهر، ص: 107.
(3) سير أعلام النبلاء (21/ 181، 182).
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 230.
(5) المصدر نفسه، ص: 224، 238.
(6) المصدر نفسه، ص: 238.

7 ـ التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية:

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية[1]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

أ ـ الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يُعرفون: «باسم المقادسة» نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول: إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران: **الأول**: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. **والثاني**: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولا بد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة[2]، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[3]، وكانت المدرسة القادرية والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية، ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه: «مرآة الزمان» أن والد موفق الدين بن قدامة حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات[4].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 275.

(2) المصدر نفسه، ص: 187.

(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ص: 275.

(4) مرآة الزمان (8/ 313، 314).

ب ـ هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية: تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الشيخ عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام (618هـ/ 1221م)[1]. كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى سنة (606هـ/ 1209م) والذي درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء[2]، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد[3]، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود المتوفى عام (570هـ/ 1174م) الذي لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه، وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن[4].

ج ـ المشاركة في الجيش والجهاد العسكري: وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي، وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة «دوين» من أعمال أذربيجان والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة، ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي[5]، وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته، ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة، وكانوا يسمونه الأمير الكبير، توفي في القدس عام (588هـ)، وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه: تهدم به بنيان قوم، والدهر قاض ما عليه لوم[6]، ويأتي تفصيل ذلك عند حديثنا عن الدولة الأيوبية بإذن الله تعالى.

---

(1) شذرات الذهب (5/ 199)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 276.

(2) العبر(5/ 17)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 277.

(3) الدارس في أخبار المدارس (2/ 115).

(4) طبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 277.

(5) وفيات الأعيان (7/ 139، 143).

(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 279.

د ـ المشاركة في ميادين السياسة: اشتغل نفرٌ من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة، ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة، ومن الأمثلة على ذلك: أسعد بن المنجا بن بركات، فقد أشار ابن رجب بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[1]، وكذلك علي بن برداون بن زيد الكندي الذي حظي عند السلطان نور الدين[2]، ويشابههما حامد بن محمود الحراني الذي صحب عبد القادر ودرس عليه، وعندما انتهى من الدراسة ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين فولّاه التدريس والقضاء والمظالم في حران، ويذكر ابن رجب أنه رحل إلى بغداد ونزل بمدرسة الشيخ عبد القادر، وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين[3]، وكذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم، ففتح الله ﷻ عَلَيَّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[4]، ولقد قُدِّر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه، وقد أرسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر، وقد قام ابن نجا بدور خطير وهام في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام 564هـ/ 1168م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكّام الدولة الفاطمية[5]، ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر، وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد وأن تفشل فجرى الأمر كما ذكر[6].

وكان الشيخ عثمان يرى أن يسبق غزو شيركوه لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله، بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن خطوة بن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط

---

(1) طبقات الحنابلة (2/ 49)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 279.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 280.

(3) المصدر نفسه، ص: 280.

(4) قلائد الجواهر، ص: 33.

(5) مرآة الزمان (8/ 515)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 281.

(6) طبقات الحنابلة (1/ 308)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 281.

الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[1]، وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام (569هـ/ 1173م)، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله عن بيان فقه نور الدين زنكي في إسقاط الدولة الفاطمية.

8 ـ صفاته ووفاته:

وصف موفق الدين ابن قدامة المقدسي الشيخ عبد القادر فقال: كان الشيخ عبد القادر نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر، عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر[2]، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكأنه في الصيف يتصبب العرق من جسده[3]، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه[4]. وقد أطنب المؤرخون الذين ترجموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواطر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب، وكانت له عناية بالفقراء والمساكين، فقد كان يجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم، ويقف مع الصغير، ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، وكان لا يرد سائلاً، وكان يكرم جليسه بحيث لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويُصدق مَن حلف له، ويخفي علمه فيه، وكان يأمر كل ليلة بمد السماط، ويأكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على مَن حضر، ويكافيء عليها مهديها[5]، مع أنه لم يكن يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ما كتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن واحدهم: صلى عليه الشيخ عبد القادر[6]، وكان كثير الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة[7]، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة، وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه[8] منها، وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 282.
(2) مرآة الجنان، لليافعي (3/ 352).
(3) طبقات الحنابلة (1/ 299).
(4) عوارف المعارف، ص: 356، نشأة القادرية، ص: 131.
(5) نشأة القادرية، ص: 132.
(6) المنتظم (10/ 85، 122)، نشأة القادرية، ص: 132.
(7) طبقات الحنابلة (1/ 292)، نشأة القادرية، ص: 133.
(8) نشأة القادرية، ص: 133.

قال له: ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له: ما تحت السجادة أعطه الخباز والبقال[1].

وفاته:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ قد توفي عام 561هـ[2]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة[3]، وقيل: إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[4]. وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله ﷻ، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله ﷻ، وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: «استعنت بلا إلٰه إلا الله سبحان مَن تعزَّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله»، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رَحِمَهُ اللَّهُ[5]. وقبل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب الوصية، فقال له: عليك بتقوى الله ﷻ وطاعته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وَكِلِ الحوائج كلها إلى الله ﷻ، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله ﷻ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد. ثم قال: مرّوا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ[6]. وقد تمّ دفنه ليلاً في مدرسته، ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلأت الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناثاً وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الشيخ عبد القادر: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله

---

(1) بهجة الأبرار، ص: 104 نشأة القادرية، ص: 133.

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 265 للكيلاني.

(3) نشأة القادرية، ص: 133

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني لعبد الرزاق الكيلاني، ص: 265.

(5) المصدر نفسه، ص: 266.

(6) الفتح الرباني، ص: 373، فتوح الغيب، ص: 130.

تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلّا من تنفق عليَّ إرادة ورغبة[1]. ومن أقواله: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربّك[2]، وقال عنه الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة[3].

وقال عنه ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنَّف كتاب «الغنية» «وفتوح الغيب» وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدّس الله روحه ونوّر ضريحه[4].

(1) قلائد الجواهر، ص: 41، أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 450).

(3) المصدر نفسه (2/ 450).

(4) البداية والنهاية (16/ 420).